كتب ثقافية

الزهاوي

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٣٦

بقلم

أنور الجندي

كتب ثقافية
الكتاب ٣٨

الزهاوى

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٣٦

بقلم
انور الجندى

تصـــــدير

منذ ربع قرن خلف جميل صدقى الزهاوى دنيـانا • وقد جاوز السبعين فما ذكره خلال هذا التاريخ الطويل الذىأوشك أن يكمل ربع قرن من الزمان ذاكرا الا بضع محاضرات الفيت فى معهد من المعاهد العالية وفصل أو فصلين فى مجلة هنـا أو هناك • واذا كان الزهاوى قد لقى الاغضـاء من الرجعيين أو الجامدين فلماذا نسيه المجددون وحملة ألوية الفكر الحـر الناهض • واذا كان أبناء عصره وجيـــله قد غضوا من قدره فما باله اليوم وقد ظهر جيل جديد فى العـــالم العربى يؤمن بتقدير الاحرار من رجال الفـكر وحملة المشـــاعل فى طريق التجديد والبعث • هؤلاء الاحرار الذين اذا ذكروا كان جميل صدقى الزهاوى ـ بلا مجاملة أو مبالغة ـ من أوائلهم وروادهم فهو شاعر الحرية الذى احتمل فى سبيل دعوته عنتا شـديدا وهجوما عنيفا • وهجاءا قاسيا • واذا ذكر شـعراء عصره فى مجال التجديد والجـرأة والاندفاع نحو أهـــداف الحرية والتجديد ، لم نجد من يستطيع أن يسـبقه أو يلحقه أو يقف فى صفه •• فقد كان شعراؤنا فىمصر وسوريا ولبنانوالعراق ـ فى الاغلب ـ مجاملين يسيرون فى ركب الامـراء محافظين متئدين يقفون فى الوسط فى معترك التجديد والتقليـــد ••

ولايمكن أن يكون شوقي أو حافظ أو مطران أو الكاظمي أو الرصافي قد طالب بحرية الكلمة أو اندفع في جرأة الزهاوي ليطالب بتحرير المرأة أو تنقية العقيدة أو تحطيم الاصنام أو الدعوة للقومية العربية أو مهاجمة الخلافة العثمانية أو الحكومة الفاسدة أو طغيان الامراء أو استبداد الملوك أو اجرام المستعمرين ٠

ومع هذا فقد لقي جميل صدقي الزهاوي بعد موته نفس الهوان الذي لقيه في حياته فلم يذكره الا القليلون ولم يكتب عنه بعض ما كتب عن شوقي أو الرصافي أو مطران ٠

وعندما أخذت أدرس حياته بحثت عنه في مطبوعات دور النشر الكبرى فلم أجد عنه في أبواب الاعلام دراسة ولا في باب الشعر ديوانا ٠٠ ولا في أبحاث الادب رسالة ٠٠ ولولا فصول منثورة كتبت في الهلال والكتاب والرسالة وفي مؤلفات الريحاني وروفائيل بطي وشوقي ضيف ولويس شنجي وأنيس المقدسي والزيات ٠٠ لكان من العسير أن يجد المؤرخ ما يضيء أمامه الطريق لحياة هذا الشاعر العملاق الذي كنا نصافح شعره سنوات ١٩٣٢ وما بعدها في الرسالة فنرى ذلك الوهج القوي اللافح في جرأته وحرارته وايمانه ٠٠ وهو في ذلك الزمن لم يكن الا في شيخوخته ٠٠ كان في السنوات الاخيرة من عمره المديد ٠٠ وقد هدته الامراض ٠٠ ومع ذلك فقد كان حيا دافقا يملأ النفس ٠٠ ويذكر بعظمة المتنبي

والمعري مختلطة ممتزجة .. الاول في كبريائه واعتداده والثاني في شكوكه وتحرره ..

ولقد كان من الطبيعي أن يجيء اليوم الذي يثير الزهاوي ثورة جديدة في الشعر العربي والفكر العربي وان بدت أهدافه ومعانيه ورؤاه اليوم وقد تحققت الا انه مايزال رمزا على معنى الجرأة والقوة والحيوية الدافقة .. انه سيظل منارا في الفكر العربي يهدي الى غاية جديدة لم يكن يعرفها الشعر العربي من قبل وان يكن مطران قد جدد العـــوافي فان الزهاوي قد جدد المعاني وأعطى الشعر معناه الحق في الكلمة الخـالدة « ديوان العرب ».

عصر الزهاوى

عاش الزهاوى سبعين عاما من عمر العراق والامة العربية فى فترة من أخطر فترات هـذا الشرق .. هى مرحلة التوثب والصراع والانتقال من استبداد تركيـا العثمانية الى ظلم الاستعمار البريطانى .. عاش هذه الفترة الضخمة يقظ القلب حى الوجدان .. متأثرا بالاحداث .. مسجلا لها .. ولم يقف عند هذا شأن الشعراء .. ولكنه كان صـادقا يدعو قومه الى كل جديد ، لا يمل الحداء ولا النداء ولا الدعـوة مهما أغضب الناس ومهما أغضبه الناس .. انه ذلك الداعى العنيد الذى يتلقف كل جديد من الرأى فيدقله شعرا ويدعو اليه العـراق والعرب .

وقد شب الزهاوى عن الطوق ابان الاحتـلال البريطانى لمصر وهزيمة عرابى .. فى نفس الوقت الذى كان العـراق يرزح تحت سلطان طاغ هو سلطان العثمانيين ، الذين يكرهون العرب ويسومون جزءا كبيرا من الامة العربية استبدادا مرهقا عاصفا . وكان عبد الحميد اذ ذاك يقبض بحفنة من الجواسيس على رقاب العباد ويحصى عليهم أنفاسهم .

وسرعان ما خالف الزهاوى مدائحه للسلطان ، عندما بدت معالم دعوة أحرار تركيا الى مقاومة استبداد عبد الحميد ،

وراح يمطره وابلا من شعره الثري داعيا الى الدستور .. ثم يصور تباريح ناعي الدستور العثماني و تنمر رجب لرثيه الفتاة وهنا نرى الزهاوي في مقدمة الركب فرحا مبتهجا .. يحب للحرية ويحيا للعراق ويتطلع الى فجر جديد في حياة الامة العربية ثم لا تلبث الدعوة الى القومية العربية ان تعلن حتى يسهم فيها ويهاجم احمد جمال السفاح الوالي التركي في سوريا بعد ان علق على المشانق الابرار الشهداء من صفوة الرعيل الاول للدعوة الى انفصال العرب عن الترك ومقاومة الحملة المغرضة لتتريك العرب باسم « الجامعة الطورانية ».

فاذا بدأ العراق يدخل في عهد جديد بعد ثورة دامية نرى الزهاوي يدعو الى الدستور والبرلمان والشـــورى وحـرية الصحافة والاستقلال وتحرير المرأة .. ويتقدم موكب الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي ويشارك فيه مشاركة فعالة .

وهو في هذه المرحلة الطويلة يهدر بالشعر قويا حيا زاخرا بالانتفاضات ، فيه صورة ذلك القلب الذي يتحرق الى حرية قومه من أسر الاستبداد والاســـتعمار والخرافات والاوهـام والجمود .

وهو طوال هذا الزمن يدفع عن دعوة الحرية والتجديد في قوة .. ويكرر ما يقول أحيانا .. ويندفع في حماسة بالغة .. وقد يكبو .. وقد يخطيء .. ولكنه لا يتوقف أبدا ولا يصمت أبدا .

وقد يكون شعره نظما .. وقد يكون أقل جودة من شعراء عصره ولكنه يتفوق عليهم جميعا في أنه يحمل مضمونه معاني

قوية ·· وآراء جديدة ·· وحركة دائبة ·· وانه يدعو ولا يمل الدعاء الى العصرية ·· ويصرخ ولا يمل الصراخ مدافعا عن الجديد ··· وينادي ولا يتوقف عن المناداة باسم العراق الحبيب الى نفسه ونفوس العرب جميعا · وقد عاش هذا الزمن كله طوال أيامه عابسا متشائما شاكيا ساخطا مسرفا في العبوس والتشاؤم ·· غير متوقف عن الشكوى والسخط ذلك ان نفسه الكبيرة وحبه للعراق وايمانه بالحرية وتطلعه الى فجر مشرق يرى فيه العرب وقد أصبحوا في مقدمة الركب · كل هذا كان يشعره بأن التطور بطيء وان التقدم وآن ·· وان ما يتطلع اليه من أمل مايزال بعيدا · أضف الى هذا أنه كان يحس بعد أن ارتفع به السن انه لم ينصف في قومه ولم يكرم في وطنه ·· ولم يأخذ مكانه الحق ·· وان حملات النقد العاصف وكلمات الهجاء المرير كانت تتناشه من هنا أو من هناك · ونسى انه لم يكن شاعرا يغرد فيجتمع حوله الناس ليصفقون له ، وانما كان داعية يحطم قديما باليا ·· ويمزق تقاليدا تعارف عليها الناس بالحق أو بالباطل طويلا· وانه كان يدعو الى جديد تنظر الجماهير اليه في خوف وقلق واشفاق ، وان من شأن من يتصدى لهذا أن لا يجد من عامة أهل جيله الا المعارضة والخصومة ·· وقد كان يستطيع أن يدع هذا وأن يعيش مادحا ومغردا وسائرا في كل ركب ، عندئذ كان يجد من عامة الناس الرضى والاعجاب والتصفيق ، أما وقد اختار لنفسه الدعوة الى الحرية والخلاص من أسر التقليد ··

والاغلال القديم .. وقيود الجمود .. فلم يكن من المتوقع أبدا أن يواجه الا بمثل ما ووجه به على أن الزهاوى يقر الان فى قبره راضيا حين يرى أن دعوته دفعت العرب جميعا الى الفجر الصادق .. فبدت علامات الحرية الحقة ترتسم فى الافق .. والاوطان تتخلص من المستعمر ، والمجتمع يتقدم ، والمرأة تأخذ حقها فى العلم والسفور والعمل فتشترك فى كبريات الاعمال وتدخل البرلمان وان علامات الجمود والتقليد والبدع فى محيط الدين قد تراجعت وحل محلها اجتهاد وتحرر وعودة الى المنابع الصافية للعقيدة .

وليس شك أن صيحة الزهاوى وثورته المتصلة ودعوته التى امتدت خلال حياته أكثر من أربعين عاما كان لها أثرها فى التطور .. ومكانها فى تاريخ حركات البعث والتحرر .

مطلع الشـــباب

ولد الزهاوى (١) فى يوم الاربعاء ١٨ من شــــهر يونيـو (حزيران) عام ١٨٦٣ فى بغداد وكان والــده محـــمد فيضى الزهاوى مفتى العراق ‥ وأخوه فقيه من فقهائها ‥ ويرجع نسبه الى أمراء السليمانية الذين يرجعون الى خالد بن الوليد وترجع شهرته بالزهاوى الى أن جده هاجر الى «زهــاو» من أعمال ايران فأقام فيها ، وتزوج منها بسيدة زهاوية ،

أما أم المترجم له فسيدة من أسرة عريقة فى المجـــد غير انها كانت عصبية المزاج ولا تذعن لرأى أحد (٢)

ومن هنا تنكشف لنا حقيقتان : الاولى انه نشأ فى محيط الفقه والدين وكان والده واخوه يريدانه صاحب فقه وقضاء ، فاندفع خارج هذا المحيط بل لم يلبث أن هاجم هــذا المحيط بثورة على الفقهاء ورجال الدين وهذا اتجاه طبيعى بالنســبة للزهاوى العنيد من ناحية وبالنسبة لرغبتـــه فى التبريز عن

١ ــ زهاوى زاده جميل صدقى افندى كما ورد اسمه فى الكتب القديمة

٢ ــ من رسائل الزهاوى الى أحمد محمد عبيش ، ملحق السياسة الاسبوعية ٧ يناير ١٩٣٢ .

طريق مخالف لطريق أبيه وأخيه والأخرى .. ان أمه كانت عصبية المزاج ولا تدعن لرأى أحد . وقد ورث الزهاوى منها هذا الطبع وعرف به .

يقول الزيات : كان أهله يريدونه صاحب عمامة وفقه . ولكن عناده دفعه أن يديم النظر فى الأدب .. ثم بدأ ينظم الشعر فكان صاحب ذوقه وفلسفته وإن الاستعداد الموهوب فى الطبع وهو منشيته الحديث فى نحو . جعل من الزهاوى أبا العلاء وقد كان أهله يريدونه أبا حنيفة .

ويرد بعض المؤرخين جراءة الزهاوى الى عرق العم والخال من الكرديه .

وقد تعلم الزهاوى تعليما دينيا .. فقد ذهب الى الكتاب فى سن الخامسة ومكث فيه لبضع سنوات بليـــدا لا يتقدم ولا يهتم بغير اللعب ونظم الاشطر الفارغة من المعنى .

وكان كثير الحركه محبا للعب أكثر من اخوته وأترابه .. متمردا لا يذعن لرأى .. يقول الزهاوى فى رسالته (١): كنت فى صباى أدعى بالمجنون لحركاتى غير المألوفه .. وفى شبابى بالطائش لخفتى وايغالى فى اللهو . وفى كهولتى بالجرىء لمقاومتى للاستبداد . وفى شيخوختى بالزنديق لجهرى بارائى الحرة الفلسفية .

وقد تعلم كثيرا من علوم الاولين فلم يشبع عقله . واستطاع أن يقرأ كثيرا مما ترجم الى العربية على أساتذة مختصين .

(١) رسائل الزهاوى . مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

ثم قرأ عن الفارسية والتركية بعد أن أجادهما ومعنى هذا أن علامات الثورة ولدت مع جميل وأن روح التمرد وعدم الادعان لاحد .. كانت من أول ملامح صباه وقد ظلت عند العوامل تتفاعل في نفسه طوال حياته .

ولعل أمرا آخر كان له أثره في تكوين طبيعة الزهاوي وشخصيته : يقول الزهاوي (١) كانت والدتي تعيش مع أولادها في بيت منعزل عن بيت والدي فنزعني والدي من أحضانها دون اخوتي واخواني .. وأخذ على عاتقه تربيتي تربية خاصة متبعا هواه . وكان من هواة الادب .. وكان شاعرا في الفارسية والعربية معا غير أنه مقل فيهما .

ولعل هذا الحادث له أثره في نفسية الزهاوي .. فان انتزاعه من أمه دون اخوته لابد أن ترك في نفسه احساسا بالالم والضيق أضيف الى عوامل نفسه فزاده ثورة وقلقا واضطرابا

ثم ابتلى جميل في الخامسة والعشرين من عمره بداء النخاع الشوكي الذي لازمه بقية حياته ولم يلبث بعد ذلك أن أصيب بالشلل في رجله .

ويقول أحمد محمد عيشى (٢) ان جميل حفظ جزء «عم» بعد ثلاث سنوات .. ثم قرأ جميع أجزاء القرآن وحفظ منها ما استطاع وتفتح ذهنه شيئا فشيئا .. وقرأ على بعض العلماء مبادىء الصرف والنحو والمنطق .. وقليلا من البلاغة .. ولما

(١) رسائل الزهاوي . مجلة الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧
(٢) السياسة الاسبوعية ـ ٧ يناير ١٩٣٢

رآهم لا يسبعون جشعه .. ولا يروون غلته .. ولا يمنحونه بأجوبتهم على أسئلته العويصة عن الالوهية وما شاكلها رجع الى أبيه غضبان أسفا .. قائلا له :

هؤلاء شيوخ جامدون

قال والده : وبين لك يا بني أنت ومن على شـــاكلتك من الشيوخ الجامدين ..

وهذه هي أول معالم الثورة .. ولابد أن ذلك كان في سن العشرين أي عام (١٨٨٣) وهذا التاريخ عندما بدأ حيـــاة الزهاوي الادبية وعلامه الطريق الطويل الشاق الذى قطعـه محملا بورانياته وعوامل بيئته .

ولقد كان والده يشفق عليه من ثورته ونزعته الجريئة الى التمرد . ويروى انه استدعى ابنه اليه في ليلة من ليـــالى الشتاء الباردة .. كان قد أهداه عباءة جميلة .. وقال :

ـ ألبس .. ياجميل عباءتك فأني أخاف عليك البرد

ورد جميل على طريقته المتمردة الجريئة :

ـ يا أبي اني لابس الغرفة فمن أين يتسرب البرد الي .

وصمت والده ولم يزد على أن نظر اليه فرأى بريق الذكاء الحاد ينفذ من عينيه الواسعتين وقد رفع رأســه الكبير في زهو وثقة ..

وقد قسم جميل شبابه بين اللعب والقراءة .. كان يلعب بالكعاب ثم بالحمام القلاب فيطيره أسرابا في الهـــواء . كما أولع بركوب الخيل فكان يسابق ويسبق كما أحب لعبة الداما

وقد ألف في هذه الالعاب رســــائل نشرها فى المقتطف والهلال •

ومن ناحية أخرى أكب على قراءة المتنبى وتفسير البيضاوى وغيرها من المؤلفات الضخمة التى كانت تحفل بها مكتبة أبيه

وقال الزهاوى فى بعض كتاباته (١) طالعت فى شـــبابى مؤلفات الدكتور فانديك المطبوعة فى بيروت وكتابى أصـــول التشريح والفسيلوجيا لورتبات • وبضعة مجلدات من المقتطف كانت قد نشرت يومئذ فحصل لى بسبب هذه الكتب الاطلاع على أساسات العلوم العصرية ، ثم توسعت فى هذه العلوم فى كهولتى بمطالعة كتب مترجمة الى التركية • وأكثرت من قراءة الروايات يومئذ من الفرنسية الى التركيـة •• فحصلت على شيء قليل من العــلم بعـــادات المجتمع الغربى وأفكاره منها البؤساء لهوجو فى مجلدين ضخمين • ولم استغن حتى اليوم عن مطالعة الكتب المترجمة الى العربية أو التركية •

---

(١) الكتب التى أفادتنى مجلة الهلال ـ ١٩٢٧

حيـــاته

من الاعلام من تكون حياتهم خطا واحدا مستقيما لا أحداث فيه ولا تقلبات ومنهم من تضطرم حياته بالاحداث صـاعدة هابطة . دافعة مندفعة . هادرة لا تتوقف ولا تسكن . ومن هؤلاء جميل صدقي الزهاوي فقد كانت حياته الطويلة حافلة متحركة وهي الى ذلك خصبة غنية فيها الجديد دائما وفيها الصراع والارتطام والاختصام لا يتوقف ولا يهدأ ولا يلين .

والزهاوي منذ اليوم الاول حتى اليـوم الاخير هو : الثائر المتمرد الجرئ الذي يعارك ويخلق ميادين المعـركة ويواجه الناس بالجديد والغريب عما يغيظ ويثير .

قلمه هو متنفس حياته .. ونافذة روحه ..

ولقد ذهب الزهاوي شمالا وغربا وشرقا .. وعمل في أكثر من عمل . وهو بطبيعته القلقة لا يقـر ولا يتـوقف . وانما يتحرك ويتحرك دائما .. عينته الحـكومة التركية في أول شبابه عضوا في مجلس المعارف ببغداد ثم مديرا لمطبعة الولاية ومحررا للقسم العربي من الجريدة الرسمية «الزوراء» ثم عضوا في محكمة الاستئناف ثم عين عضوا في مجلس المبعوثان عن بغداد ولما أعلن الدستور عين أستاذا للفلسفة في المكتب الملكي بالاستانة ثم مدرسا للاداب العربية في دار الفنون ثم عاد الى

بغداد فعين أستاذا للشريعة في كلية الحقوق ثم نائبـــا في مجلس الشيوخ العراقي ٠

وفي خلال ذلك سافر الي مصر وسوريا وذهب الى اليمن بارداة سلطانية « واعظا عاما » وعضوا في الجمعية الاصلاحية وبقي فيها تسعة أشهر ٠

وهاجر الى سوريا ومصر ٠ وأقام بالشام وبيروت فترة ثم عاد الى العراق

هذه ملامح الصورة العامة لحياته العملية ولكنها تحـوى اغوارا بعيدة المدى فانه لم ينس خلال حياته هذه شعره ولا أدبه كان ينشر في المجلات والصحف في مصر وبيروت والشـــام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة أيام الاستبداد الحميدي بامضاء مستعارة ٠

وعندما سافر الى استانبول اجتمع بالاتراك الاحرار وجهر بالسخط على نظام الحـكم القـــائم اذ ذاك ٠ ونظم عددا من القصائد نشرت في المؤيد٠ وعاش تتعقبه الجواسيس٠ وكانت النهاية أن سجن وحمل مقيدا الى بغداد ٠

يقول الزيات (١) : رأى في الاستانة عبد الحمـــيد يلقى الاحرار مغلولين في غيابة السجن أو في قاع البحر فارســل اليه مع أبي الهدى قصيدة قال فيها :

---

(١) الرسالة مجلد ١٩٣٧

أيأمر ظل الله فى أرضـــه
بما نهى الله عنه والرسول المبجل
فيفقر ذا مـــال وينفى مبرأ
ويسجن مظلـوما ويسبى ويقتل
تمهل قليلا لا تغظ أمـــة اذا
تحرك فيهـــا الغيظ لا يتمهـل
وأيديك ان طالت فلا تغتر بهــــا
فان يد الايام منهن أطـــول

فحبسه حينا ثم نفاه ..

وسمع وهو عضو فى مجلس المبعوثان عن بغـــداد مقرر الميزانية يذكر فى وزارة الحربية مبلغا جسيما من المال جعلوه لقراءة البخارى فى الإسطول فقـال : انا أفهم أن يكون هـذا المبلغ من وزارة الاوقاف .. اما الحربية فالمفهوم أن الاسطول يمشى بالبخار لا بالبخارى . فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة .

ولما دعاه الخليفة الى الاستانة ، أقض مضاجع الجاسوسية فانتقص أمره وساء مقامه .

ويروى الزهاوى فى احدى رسائله الى أحمد محمد عيشى أحرج ساعات حياته يقول : ان أحرج ساعاتى هو يوم هـاج الشـعب العراقى على عام ١٩١٠ لمقـالة شديدة نشرتها فى « المؤيد » فى الدفاع عن المرأة حتى انى قبعت فى دارى أسبوعا ولم أخرج منها خوف اغتيال الشعب المارد لى . وعزلنى يومئذ والى بغداد ناظم باشا من وظيفتى فى مدرسة الحقوق ببغداد

وقد تزوج الزهاوى فى سن الثلاثين بالانسة زكيــة هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة وهى من بيت تركى شريف ولم يولد لهما ولد وخدمته فى شيخوخته باخلاص وامانة (١) •

وقد عاش الزهاوى (٢) بالرغم من الامراض والشــــلل والنوبات العصبية ، ظل الى ما قبل وفاته بيوم واحــد وقاد الذهن قوى الذاكرة • وكان يحب المرح والاطراء ويضــيق بالنقد ذرعا •

ويصف الزيات الزهاوى • وقد عاش معه فى العراق أعوام ٣٠ و٣١ و١٩٣٢ وكان صديقه الوفى •• «لم تكد تلــوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السـمــاع والقراءة حتى رأيت على باب البهو شيخا فى حدود الثمانين قد انخرع متنه وثقلت رجله وارتعشت يده فهو لايحمل بعضه بعضا الا بجهد والزهاوى ديدنه أن يتكلم كأنما من خصائصه ان يغـرد •• فهو فى مجلس الصداقة محدث أو مفـكر • وفى مجلس الادب محاضر أو شاعر وفى مجلس الانس مفكه أو محدث » •

كما صور الزيات منتداه بشارع الرشيد أو على ضفة دجلة وهو جالس على الدكةالخشبية ينشد الابيات الرائعة أو يرسل النكتة البارعة أو يروى الخبر الطريف فى بشـــاشة جذابة وقهقهة ساذجة •• ويده المرتعشة لا تنفك تعبث بسـبحته الصغيرة أو تصعد وتهبط سيكارته العراقية •

(١) رسائل الزهاوى : الكاتب المصرى • يناير ١٩٤٧

(٢) سليم طه التكريتي • مجلة الكتاب • يونيه ١٩٤٩

كما وصف عمره في (الصابونجية) وكيف كان يحدثه أنه قضى الليل ساهرا يقرأ .. ويداعب خطه .. القصص والمجلات منتثرة على سريره وعلى مقعده .. المسودات مدسوسة تحت مخدته أو في ثيابه ..

يقول للزيات : أنظر كيف أذيب عمري في شعري . وآلامه تقذفني بالبهتان .. وأحكومة تخرجني من مجلس لاعمل .. والملك يستكثر على أن أكون شاعر البلاط .

.. ثم لا يلبث أن يقول : سأذهب وستبقى أشعارى تعبيرا عن شعوري نطقه بآلامي فهي دموع ذرفتها على الطرس وهي خليقة أن تبعث من عيون قارئي دمعة هي كل جزائي عن نظمي

شـــــعره

اشتغل الزهاوى بالنثر والشعر ولكنه برز فى الشـــــعر وعرف به وأطلق عليه لقب (الشـــاعر الفيلسوف) وقد بدأ حياته كاتبا ولكنه تفرغ للشعر بعد قليل واقتصر عليه ٠ وان كانت محاولاته الاولي في الشعر بدأت باكرة وســـاذجة ٠٠ يقول الزيات : لم يعرف الشعر الا بعد أن علت به السن ٠

ويقول فى رسائله الي محمد أحمد عبشى (١) : ان والده كان شاعرا فى الفارسية والعربية معا وان كان مقلا فيهما ٠٠ ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدع فى حاجة بازا ولا أســدا
الله ربـــك لا تشرك به أحدا

يريد بالباز عبد القادر الجيلى ٠ وبالاسد عليا بن أبى طالب كما كان يلقبهما به الجمهور فى العراق ٠

ويقول : وأتذكر أنه ـ أي والده ـ كان فى طفولتي يعدنى بدرهم اذا نظمت شطرا واحدا من الشعر موزونا ٠ وان لم يكن له معنى ٠ وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جـــزل

(١) ٧ يناير ١٩٣٢ ـ السياسة الاسبوعية

والدى • اما جذلى أنا فكن فى الحـوى التى كنت شمريها بذلك الدرهم •

ومد تناول الزهاوى فى شعره السيـسه والاجتماع والغـزل ولعلم والفلسفه •

أصدر عـدة دواوين : الكلم المنظوم بيروت ١٩٠٨ • ديوان الزهاوى : القاهرة ١٩٢٤ ، رباعيات الزهاوى : بيروت ١٩٣٣ اللباب : بغداد ١٩٢٨ ، الاوشال : بغداد ١٩٣٤ ، الثمـالة : بغداد١٩٣٩ ، ترجمة رباعيات الخيام من الفارسيه بغداد ١٩٢٨

وله ديوان نزعات الشيطان مجموعه من القصائد لم تنشر بعد فى المجلات و لجرائد •

يقول الزهاوى : وسوف تنشر بعد موتى لانها ستصدم آراء المتعصبين وتثيرهم على اثارة لا أحمد عقباها •

وقصيدة : ثورة فى الجحيم •• وعدد أبيـاتها ٤٣٣ بيتـا ونشرت فى مجلة الدهور فى العام الماضى •• وكانت تصدر فى بيروت • يقول الزهاوى (١) وقد قامت حولها ضجة كبيرة • وقد سبنى بسببها بعض المتعصبين على المنابر فى خطبـة الجمعة • ونفذت بعد قليل من الزمن نسخها •

يقول الزيات : نظم فى أعقاب عمره قصـيدة « ثورة فى الجحيم » فلما كلمه الملك فيصـل بشأنها قال : عجزت عن اضرام الثورة فى الارض فأضرمتها فى السماء •

وقال الزهاوى فى رسائله : أن أكثر شعرى الذى نظمتـه

(١) رسائل الزهاوى ديسمبر ١٩٤٦ الكاتب المصرى

قبل الدستور العثماني نشر فى ديوانى الاول الكلم المنظوم (١) كما كتب عليه هذه العبارة « نظمه ونثر أكثرها ايانها بامضاء رمزى فى أشهر جرائد مصر يوم كان الاستبداد شديدا » .

وقد أوضح الزهاوى منهاجه الشعرى فى مقــدمة ديوان الزهاوى الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٢٤ : قال فى مقتطفات من هذه المقدمة :

الشعر ما ينظمه الشاعر من احساس يجيش فى نفســه باوزان موسيقية فيهز به المسامع .. ولا أرى للشعر قواعـد بل هو فوق القواعد .. ولا يتقيد بالسلاسل والاغــلال .. وهو أشبه بالاحياء فى اتباعه سنة النشوء والارتقاء .. يتجدد بحسب الزمان ويرتقى من الادنى الى الاعــلى .. وانزع أن امشى بشعرى فى سبيل الحيــاة الطبيعيه متجنبا المبالغات وما احلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التى ورثها الابنـاء عن الاباء فيقول ما يشعر به .. ولا يشعر به اباؤه .

ومازلت فى جو من الفـكر طائرا

ومن عادتى أن لا أطير مع السرب

ولا أرى مانعا من تغيير القافية بعد كل بضعة ابيـات من القصيدة .. عند الانتقال من فصـل الى آخر .. كما فعلت

---

(١) طبع فى المطبعة الاهليه ببيروت وآخر قصائده مؤرخه بغداد فى ٧ أغسطس ١٩٣٢م

فى عدة قصائد ، لا دفعا لملل السامع من سماع قافية الواحدة في كل بيت .. بل اراحة للشاعر من كد الذهن لوجدانها. واجيز للشاعر أن ينظم على أي وزن شاء سواء كان من أوزان الخليل أو من غيرها. و للشاعر الحر شجاع لا يهاب في الصدق لومة اللائمين ، الا اذا أحس بالمهلكة فعندئذ يسكت أو يكذب. ونزاع الى التجديد . يثور على النظام . ويتمرد على السلطان الكاذب .. يريد كل يوم أن يمرق عن العـــادات . ويمزق أطمارها البالية كالفراشة التي تخلع شرنقتها لتبرز في ثوب أجمل محبر بألوان السماء .

٢ ــ الجديد .. الجديد .. هو أحسن ما تنزع اليه النفس الوثابة ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما النظر .

سئمت كل قديم عرفته في حياتي

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجدد أن يقلد الشاعر العربي شعراء الغرب في شعورهم .. فان لكل أمة شعورا خاصا بها لا تحس به أمة أخرى .

لا اقول أن يجمد الشاعر العربي على ما هو عليه الشـــعر اليوم .. بل الاحجى أن يترقى شعر كل أمه في سبيله

ولا يسوغ للشاعر العربي مخالفة قواعد اللغة . وللشاعر الفحل أن يولد في اللغة اذا مست الحاجة كلمات لم يات بها من جاء قبله .

٣ ــ وجدت الذين يمارسون الادب ثلاثة

الاكثر عددا من لايستحسن من الشعر الا ما الفــه من

من القديم وانتقل اليه بالوراثة من العصـــور الماضـية ..
الشعراء المسايرون للجمهور ينالون حظوة منهم

• المتشرب مخه من الادب الغربى لاينزع الى الشعر العربى الا على نسق مايقول شعراء الغرب . ومثل هذا قد خرج من نفسية قومه واندمج فى غيرهم .

• قليل يسير مع رقى العلم جنبا الى جنب . ويستحب الشعر خلوا من المبالغات منطبقا على الطبيعة مع المحافظة على الشعور العربى الذى هو قوام شخصيته . والاخلق الا ينتظر الذى له نزعة التجدد أن يكبر شعره الجمهور من جيله الا اذا كان الجمهور منحطا قد تعود القديم .. والشاعر الذى يساير شعور الناس فيما ينظم ينال اقبالهم على شعره مادام الشعب جامدا . أما اذا تقدم الشعب ، فان شعره يموت ويأخذ مكانه الشاعر الذى يتجدد مع جيله ..أ.هـ

وقوام رأى الزهاوى أن هدف الشعر عنده هو التجديد .. دفع المشاعر الى الحرية الفكرية والاصلاح . وحمل الجماهير على الانتقال من الجمود الى الحياة .

وقد كان الزهاوى شاعرا له هدف ورسالة وغاية يحمل دعوة البعث فى حدود قوله : تمزيق العادات البالية دون أن يخشى غضب الجماهير أو هجائهم .. بل انه يرى أن الجمهور لا يكبر الشاعر المجدد الا بعد أن يموت ويأخذ مكانه بين الشعراء قال : (١) غنيت لابناء وطنى لانى أريد ايقاظهم .. فلما

---

(١) مقدمة ديوان الزهاوى ١٩٢٤

فتحوا عيونهم شتموني ، ثم غمّيت فجدوا يعذرون انى شذرا ثم غبيت فابتسموا لي ثم عطفوا وبقى فيهم من يبسم • وسيئة وساعتي انى ان يسكنني الموت ، وسوف يبقى لمعاني معبرة عن شعوري وما لابدته في حياتي من شقاء واضطهاد ، فهي دموع ذرفتها يراعتي على القرطاس دفعة بعد لامي •• وهي حقيقة بان تذرف من عيون قارئها دمعة هي كل جزائي من نفعها •

ويرى الزهاوى ان شاعر الاجيال لا يموت شعره لانه يبنيه على الحقائق الخالدة •• وهو في الغالب يسبق جيله « ولا اراه مستفيدا من المستقبل الذى يجمع أهله على اكباره لانه يكون يومئذ تحت اطباق الثرى بينما لايسمع هتاف الهاتفين له »••

والزهاوى فى هذه العبارة يعني نفسه • ويرى أنه قد سبق جيله وانه لم يلق الجزاء من أهل زمنه • ولم يستهدف الزهاوى من شعره كسب أو نفاقا قال :

شعرى ما أردت أن أكسب به مالا •• أو اتزلف على احد• فما رثيت الا من كان صديقي • ولا حمدت الا من ظننت فيه خيرا للبلاد • وربما خاب ظني فى بعضهم فكففت •

ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن الزهـاوى جرى مجـرى القدماء فى المدح والرثاء والهجاء • وهو فى هذا مجدد بالمعاني• مقلد بأساليب القدماء وأبواب القول عندهم •

ويصور الزيات الزهاوى الشاعر في قوله : كان فكره أقوى من خياله وأسمى من عاطفته وهو من شعراء الفكرة له البصيرة النافذة • وليس له الاذن التي (تموسق) الموسـيقى •• ولا القريحة التي تصنع •• فاللفظ قد لا يختـار •• والوزن قد

لا ينسق والاسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة لحيه تجريه تعج بين الابواب المتخادلة عجيج الامواج المزبدة بين الشواطىء المنهاره .. ويرى الزيات أن الزهاوى عقليه أفاقه وسيرين دهائه وطبيعة ساخره .. وهذا التوتب الحماسي هو الذى جعله يؤثر النظم في تقييد خواطره .. وهـذه الحماسـة قد تسبب أحيانا عن الفكرة لكلالها أو ابتذالهـا .. فيذهب الشـاعر ولا يبقى الفيلسوف .

ويقول الزهاوى في بعض رسائله أن شاعريته بدأت وهو في سن الخامسة عشرة .. ومن أوائل شعره :

أما آن أن نأبى على الوطن العـارا

فنركب أخطارا ونقضى أوطـــارا

وقد ترجم الزهاوى شعرا عن توماس هاردي ونشره في الهلال عام ١٩٢٩ ..

وتعد قصيدة « ثورة في الجحيم » من أهم شعر الزهـاوى فهي مؤلفه من ٤٣٣ بيتا في قافية واحدة نشرها عـام ١٩٢٩ فأحدثت ضجة وقد ساير فيها (رسالة الغفران) وتأثر بها تأثرا واضحا في الفكرة والمشاهد . كما تأثر بدانتي في الكوميديا الالهية . وأخذ من (هوجو) العبارات التي ساقها على ألسـنة الملاك الذى اتخذه رمز البومة .. وخلاصة ملحمته أن الشاعر يموت ويودع في القبر فيظهر منكر ونكير ملكا الحساب .. فيجرى بينه وبينهما حوار حول العقيدة والحيـاة والـدين والايمان وتفاصيل العبادات والفروض الدينية . وقد عرض لهذا كله في سخرية وتهكم شديدين .

وهو يؤمن بنفسه كشاعر ومجدد وان لم يكن زعيما :

انني منذ كنت أشدو بشعري
كان يوحي الي بالتجـــديد
أنا لا أدعي الزعــــامة فيه
غير أني أبث فيه وجــودي
حبذا الليــــل والنهار بعيني
انني مغـــــرم بكل جديد
وجديد العــرض قرب معــانيه
وبعد له عن التعقيـــــد

ولقد أحب الزهاوي وقال شعرا عاطفيا رائعا :

نظرت اليها وهي بيضـــاء تبهج
تجد به ماء الصــــبا يتوهج
مشت ومشى قلبي المتيم خلفهـــا
يقبـــــل آثار الخطى حيث تنهج
لها وهي أدرى العــالمين بحالتي
هوى في فؤادي ناره تتـــأجج
أريد اذا قابلتهـــا لا أبثها
غرامي بها لكنني أتلجـــلج
تمنيت ياسلمى وهل ينـــفع المنى
لو أن حيــاتي في حيــاتك تمزج

الزهاوى المجدد

أجمع مؤرخو الزهاوى على أنه شاعر مجدد وانه جدد فى أربعة أمور :

- مكافحة العادات والتقاليد الباليه والدعوة الى التحرر والتجدد والاصلاح الاجتماعى .
- مناصرة المرأة والدفاع عن حقوقها
- ادخال النظريات العلمية ، والافكار الفلسفة المستحدثة فى الشعر .
- التحرر من قيود اللغة واستعمال المصطلحات العلميه ومزاولة الشعر المرسل

وقد ثار الزهاوى على القديم جملة .. فى الفكر والسياسة والاجتماع .. وثار على الحكام المستبدين والطغاة الظالمين . ونقد سلاطين آل عثمان وولاتهم مما أدى الى سجنه ونفيه ومحاربته فى رزقه .

قال فى السلطان عبد الحميد الثانى وقد نفى بسببها من الاستانة عام ١٨٩٧

لقد عبثت بالشعب أطمـــاع ظالم
يحمله من جوره ما يحمـل
فيا ويح قوم فوضوا أمر أنفسهم
الى ملك عن فعـــله ليس يسأل
الى ذى اختيار فى الحكومه مطلق
اذا شـاء لم يفعل وان شـاء يفعل

وما أعتقد أن شاعرا فى الشرق العربى فى هذه الفترة قاوم السلطان هذه المقاومة أو عارض الحاكم الظالم على هذا النحو

وقد كان الزهاوى حفيا بنظريات الكون والوجود والجاذبية والنسبية والتطور والفلك والكهرباء . وضرب فيها بسهم وافر من منظومه ومنثوره .

وقد درس الزهـــاوى نظريات داروين فى التطور ونيوتن فى الجاذبية وانشتين فى النسبية وضمن شعره هذه الاراء . وهو أول شعراء العرب الذين عنوا بهذه الموضوعات .. بل هو أول من أدخل المصطلحات الحديثة فى الشعر العربى فترددت فى أبياته كلمات الاثير والالكترون والبروتون والكهرباء . وكان ذلك منذ أكثر من خمسين عاما .

وقد قال ناقدوه انه ما أن يقـــرأ حكمة أو نظرية أو رأى مستحدث حتى يعمـــد الى قلمه فيدخله فى شعره . وقالوا أيضا انه ليس للزهاوى رأى جديد فى كل ما قاله من شعره . وانما كان ترديدا لما كان يقال فى صـــحف مصر من أحاديث سلامه موسى وطه حسين وهيكل وغيرهم من المجددين .

ويصف الزيات تهالك الزهاوي على التجديد على أنه خوف عاصف من الاتهام بالجمود . كان الزهاوي كشوقي (١) حريص على متابعة العصر ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد .. وحس مرهف يانف التخلف .. ويزيد الزهاوي أن الفجر يزعه وأن التيه يذهب به .. فيحب الثناء ويبغض النقد . وهو لفرقه من صفه القدم يسبق الكتاب الي التجديد . ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي الى التطرف ولطمعه في نباهة الذكر يجري مع ميول الخاصة .. ويعارض هوى العامة .. ومن تم كان أكثر شعره تشنيعا على الاستبداد بمهاجمة أهل الحكم .. وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين وتحقيرا للتأخر بمصادمة مألوف الامه .

ولعلنا نضيف الى هذا أن الزهاوي قد جدد الشعر بادخال عنصر الفلسفة اليه حتى وصف بأن الفكرة الفلسفية هي المادة الاصيلة فى شعره .

ويعزو بعض مؤرخيه نزعة التجديد فيه والدعـــــوة الى الحرية (٢) الى ما تذوقه من نسمات الحرية في الفترة التي أمضاها في الاستانة .. حيث عاش في جو حركة الفتــــاة والدعوة الى الدستور وجهاد مدحت باشا في سبيله .. ولما تتلقفه من نسمات الحرية عن طريق الصحافة العربية فى المهجر ومصر ولبنان .

(١) مجلد الرسالة ١٩٣٧

(٢) سليم طه التكريتي : الكتاب يونيه ١٩٤٩

وقد كان الزهاوى (١) يحب شعره ويعتز به ويراه رفيقه وخليله ويرى فيه عزاءه عند الملمات ومسلية عندما تعتــوره الهموم .

يا شعر انك أنت صوت ضــميرى
يبديك حـــزنى تارة وسرورى
يا شــعر أنت بكائى يوم كآبتى
وتبسمى يا شعر يوم حبـورى
أنا أنت يا شــعرى وأنت أنا فمن
يقرأك يقرأ ســرى وشــــعورى

ولقد ظل الزهاوى يكرر آرائه فى كل شــعره ، ويصر على رأى قاله بالرغم من خصومة الناس له .. وهو فى هذا يجيد اجادة ممتازة فى بعض الاحيان ويكرر نفسه ويستطرد ويبدو مملا وضعيفا فى أحين أخرى .

وقد كره لغة التقليدية والمحسنات اللفظية والمعضلة .. ولم يقف مثل الشعراء المعاصرين له عند المعانى العامة بل خاض معركة السياسة والحياة والمجتمع فى قوة

هذا وقد سببت نزعة الزهـاوى التجديدية له كثيرا من المتاعب والخصومات ولم يحتمل أهــل وطنـــه جرأة آرائه

(١) محاضرات ناصر الحانى عن الزهاوى .

واندفاعه فردوا له الصاع صاعين

ينفس قد سبوك حين نصحتهم
هذا جزاء الناصحين فذوقى
قالوا اطردوا الزنديق من أوطانكم
ماذا يخاف القوم من زنديق
قالوا اقتلوه فانما هو مارق
ماذا يضر المؤمنين مروق
أنا لست زنديقا ولا أنا مارق
حتى يحل لظفركم تمزيقى

والزهاوى الشاعر المجدد له فى الحب شعر عميق المبنى جديد فى العرض تتمثل فيه طبيعته لحريصه على أن يقول ما لم يقله الشعراء من قبله :

أول الحب فى القلوب شرارة
تختفى تارة وتظهر تارة
ثم يرقى حتى يكون سراجا
لذويه فيه هدى وانارة
ثم يرقى حتى يكون مع الايا
م نارا حمراء ذات حرارة
ثم يرقى حتى يكون أتونا
بحراراته تذوب الحجارة
ثم يرقى حتى يكون حريقا
فيه هلك لاهله وخسارة

ثم يرقى حتى يصل بركانا
يرى الناس من بعيد ناره
ثم يرقى حتى يكون جحيما
عن تفصيلها تضيق العبارة

ومن أبدع تجديده انه نقل العلم والطبيعة والفلك والكائنات وتعليل الجاذبية الى الشعر . يقول فى قصيدته « سياحة العقل » .

لا تقبل الاجرام عدا
كلا ولا الابعاد حدا
العقل يرجع خائبا
فيها وان لم يأل جهدا
مسترشدا بعلومه
فيها اذا ما ضل يهدى
والعقل يعلم من سياحته التى أولته مجدا
إن المجرة لم تكن الا
عوالم ففن عدا
والسحب فيها أنجم
من الشموس بعدن جدا
متحركات فى السماء
تخال ان لهن قصدا
متجاذبات لو تخلف
واحد عنها لأودى

وهو يعاود الحديث عن شعره في عديد من قصائد ويطالبك بالانصاف

ما الشعر الاشعوري جئت أعرضه
وأنقده نقـدا شريفا غير ذي خلل
الشعر ما عاش دهـرا بعد قائله
وسار يجرى على الافـواه كالمثل
والشعر ما اهتز منه روح سامعه
كمن تكهرب من سلك على غفـل

وخلاصة رأيه في الشعر الجديد أن يتحرر بجميع أغراضه من أسر التقاليد الجـامدة .. وان الاوزان بالنظريات التي وضعها الخليل ليست ملزمة وان التجديد يجب أن يشـمل القوالب والمضمون .

الزهاوي الناثر

اريد في هذا الفصل ان أعرض للزهاوي الكاتب .. فقد خلف عددا من الابحاث والدراسات نثرية مما يدعونا أن نحلل معالم كتاباته . ومن هذه المؤلفات رسالة الكائنات (١) في الفلسفة أبدى فيها رأيه الحر في المكان والزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية ورسالة في سباق الخيل (٢) أودعها تجاربه في ركض الخيل . ورساله في الخط الجديد (٣) وقال عنها: هذا الخط لايشبه الخط العربي ولا الحروف اللاتينيه ويقدر ان يتعلمه التلميذ في أسبوع . وهو جميل ويكتب مفصلا من اليمين الى اليسار ومن اليسار الى اليمين . ويطبع مقطعا .. وفيه تسهيل للطباعة .. فان كل حرف منه اذا قلب كان حرفا آخر من الحروف مقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما في ذلك من الاقتصاد .. ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خط عاما لجميع اللغات . ودروس الفلسفة (٤) التي كان القاها على تلاميذه في

---

١ ـ طبعتها المقتطف بالقاهرة ١٨٩٦

٢ ـ طبعتها الهلال

٣ ـ نشرها المقتطف

٤ ـ القاهرة ١٨٩٤

جامعه الاستانة ورسالة الفجر الصادق في الرد على الوهابية وقد طبع في مصر قبل الدستور العثماني ورسالة الجاذبيه(١) وتعليلها ورسالة لعبة الداما وتحتوى على ١٥٠٠ لعبة منهـا ٥٠٠ لعبة لاصحابها و ١٠٠٠ من مستنبطاته (وهذه لم تطبع) وكتاب تسهيل قواعد اللغة العربية ورسالة الجاذبية وتعليلها(٢) وكتاب المجمل مما أرى (٣) ·

وليس شك ان كل هذا المحصـول النثرى الضخم يعطي للزهاوى صفة الكاتب · وان لم يصل فيها الى درجة الشاعر التي غلبت على حياته وفنه · ولعـله مما يلاحظ أنه كان في شبابه يكتب النثر وان كل هذه المؤلفات أو أغلبها طبعت في الفترة الاولى من حياته وقبل أن يتفرغ للشعر تفرغ نهائيا

يقول الزهاوى (٤) بنيت الادب على أنقاض عبد القـادر العمرى والاخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقـلدين فلا حرارة في ألفاظهما ولا ابتكار في معانيهما ·

ويقول الزيات أن الزهاوى كان في شبابه ينظر في العلوم الفلسفية الطبيعية وسبيله الى ذلك ما ترجم من المقـالات والكتب ·· ولم يعرف من اللغات غير الفارسية والتركيـة والكردية ·· وانه الف كتاب الكائنات في الفلسفة · وكتاب

١ ـ طبعت ببغداد

٢ ـ بغداد ١٩١٠

٣ ـ مصر ١٩٢٤

٤ ـ رسائل الزهاوى ـ مجلة الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦

الجاذبيه وتعليلها في الطبيعه وحالف به اقطاب العلم . ومن ذلك قوله : أين علة الجذبيه ليستجذب المادة للمادة وانما هي دفعها لها بسبب ما تسعه من الالكترونات .

وقد عرض العقاد لهذه المسائل الفلسفية التي تناولها الزهاوى في كتبه في مقال له نشر في كتابه ساعات بين الكتب كان قد كتبه عام ١٩٢٧ وفيه يقول : (١) انني اوقر هذا الباحث الفاضل . وأعرف استقلال فكره واستقامة منطقه وجراته في جهاده . وغبنه بين قومه فلا أحب ان أقول فيه لغير ضرورة من ضرورات البحث مقالا لا يوائم ذلك التوقير ولا يناسب ماله عندي من القدر والرعاية .

اول كتاب قرات للزهاوى كان كتاب الكائنات أو رسالة الكائنات لانها عجالة مختصرة من لقطع الصغيرة وكان ذلك قبل عشرين سنة (اى عام ١٩٠٧) وانا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة . ومباحث الدين والفلسفة . فراقني من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ . ووضوح التفكير . والجراة على العقائد الموروثة .

وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقا صحيحا يذكر القاريء باشارات ابن سينا ويزيد عليهما بالجلاء والترتيب . ثم قرأت للزهاوى شعرا ونثرا وآراء فى العلم والاجتماع تدل على اضطلاع واستقلال ونزعة الى الثقة والابتكار . وكان آخر ما قرات له رسالة المجمل مما ارى ثم شعر ينشره في الصحف المصرية من حين الى حين .

١ ـ ساعات بين الكتب ص ١٩٧ وما بعدها .

.. واذا قرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكته المنطقية لا حجاب عليها ولمست فى آرائه موطن التحليل والتعليل .. ولكنك تصل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا .. وتلتفت الى البديهة فاذا هى مجدودة فى أعماقها وأعاليها بسدود من الحس والمنطق لا تخلى لها مطالع الافق ولا مسارب الاغوار .. فهو يريد أن يعيش أبدا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها سحب النهار لا تنطبق فيها الاجفان . لا تتناجى فيها الاحلام وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا وشمسا . ولكنها كذلك ليل وغيهب لا تجدى فيها الكهرباء .

وهكذا يعرض العقاد آراء الزهاوى فى العلم . وهو ماكان موضع النقد عند كثير ممن أرخو للزهاوى أو كتبوا عنه . يقول سليم طه التكريتى المحامى ببغداد (١) لقد بلغ من هوسه بهذه العلوم أن راح يناقض البعض منها ويرد على أصحابها ..

ولكن العقاد لا يلبث أن ينصفه فيقول : الاستاذ الزهاوى صاحب ملكة علمية رياضية من طراز رفيع .. وانه يصيب فى تفكيره ما طرق من المسائل التى يجترأ فيها بالاستقراء والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعر . فمن ينشده فلينشده عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصغاء اليه .. واقبال عليه فى هذا المجال .

والزهاوى الى هذا صاحب قلم وناثر ولغته قوية ممتازة .. وقد كتب فى الهلال (نوفمبر ١٧٢٦) تحت عنوان هل تدوم

١ ــ يونيه ١٩٤٩ مجلة الكاتب المصرى

نهضة الاتراك .. فقال : ان الرماد الذى تراكم فى مكان الحريق الهائل لم يخل من جمرة اذا نفخ فيها النافخ تأججت من جديد فكانت قوة كبيرة تستطيع عمل شىء جلل . وهكذا كان الامر فان الغازى مصطفى كمال نفخ فى درع الامة التركية من روحه .. تلك الروح الكبيرة :. وهو بمعزل عما كانت تكيده له الخلافة فى دارها حتى احياها وراب صدعها و ستترد بما جنده من فلول الجيش المدحور .. وهو لايملك يومئذ لا عزمه ما احتلته اليونان من بلادها وكان الموت باهرا .. ويعطى هذا نموذج رتابة ذهن الزهاوى وجمال أسلوبه النثرى .

ويعزى اتجاه الزهاوى الى الفلسفة والى ادماجها فى شعره ونثره انه كان مدرسا للفلسفة الاسلامية فى الاستانة . هذا فضلا عن انه بطبيعته فيلسوف فيه حب للجدل والمناقشة .. وفي أسلوبه ذكر الاسباب والنتائج .. ولقد كانت لغته دائما اقرب الى لغة العلم . وقد أحب مجلة المقتطف لموضوعاتها العلمية . ومؤلفات فانديك فى الفلك وكتب الدكتور ورتبات عن الفسيولوجيا والتشريح . كما أنه قرأ مترجما الى التركيه البؤساء لفكتور هيجو كما قرأ أناتول فرانس وشكسبير وجوته وتولستوى . وكان معجب بشاعر الاتراك الكبير نامق كمال .

ومما يتصل بعمل الزهاوى الناثر أنه عين فى عهد الاحتلال رئيسا للجنة تعريب القوانين التركيه فعرب ١٧ قانونا بين صغير وكبير . ..

الزهاوي والمرأة

من أبرز معالم حياة الزهاوي وشعره اشتراكه في قضية المرأة ودعوته الى حريتها وتعليمها وسفورها •• وهو أول شاعر عربي يعطي هذه القضية قدرا ضخما من الاهتمام ويتكلم عنها بحرارة • ولم يسبق في ذلك الا بقاسم أمين • ولقد بدأ الزهاوي دعوته لتحرير المرأة منذ عام ١٩١٠ وقد تحمل في سبيل ذلك مشقة كبرى وواجه هجوما صاخبا من معسكر الرجعيين والمتزمتين • فقد كان لدفاع (١) الزهاوي عن المرأة في المجتمع العراقي وقعا أشد من وقع كتابات قاسم أمين في مصر وأبعد منه أثرا •• فقد أنفق نصف قرن أو يزيد وهو يدافع عن المرأة ويوالي حملته بايمان وحرارة • وقد طالب الزهاوي بتعليمها وسفورها ومساواتها بالرجل في بيئة كانت تسام فيها المرأة كما تسام الانعام • وقد نقد الحياة الزوجية في البيئة العربية وهاجم الطرق الخسيسة التي يجري الزواج بموجبها وآمن بأن الحجاب من أسباب تأخر المسلمين •• ومن جملة شعر الزهاوي يظهر انه عالج خمس قضايا للمرأة •• السفور ومكافحة تعدد الزوجات ونقد طريقة الزواج والدعوة

---

١ ــ سليم طه • مجلة الكتاب يونية ١٩٤٩

الى تعليمها ومشاركتها فى الحياة العامة ومساواتها بالرجل يقول :

انما المرأة والمرأ سواء فى الجدارة
علموا المرأة فالمرأة عنوان الحضارة
يرفع الشعب فريقان أناث وذكور
وهل الطائر الا بجناحيــه يطير
كيف يسمو الى الحضارة شعب
منه نصف عن نصفه مستور
ليس ترقى الابنــاء فى امة ما
لم تكن قد ترقت الامهـات
اخر المسلمين عن أمم الارض
حجب تشقى به المسلمات
لايقي عفة الفتاة حجــاب
بل يقيها تثقيفها والعــلوم
هذبوا ارواح العذارى لتبقى
سالمات من العذارى الجسوم
اسفرى فالحجاب ياابنة فهــد
هو داء فى الاجتمــاع وخيم
انزعيه ومزقيه فقـد أنكره العصر ناهضــا والحلوم
اسفرى فالسفور للناس صبح زاهر والحجاب ليل بهيم
من بعدما انتظرت حقــابا
ثارت فمزقت الحجــابا

عـــربية عرفت أخيرا
كيف تنبـــذ ما أرابا
كان الحجاب يسومها خسفا ويرهقها عذابا
وســـيطلب التـاريخ من ناس
لها ظلمـــوا حسابا
سألت لها حـــرية منهم
فما لقيت جـــوابا
وليس من الدين الحجـاب وانما
رجعنـــا الى أحكامه نتفهم
فان كان نص قائل بوجـوبه
ولا نص فيه حســـبما أنا أعلم
نأوله حتى نوفـق بينـه
وبين طريق العـــلم فهو المقدم
ليس ترقى لابنـــاء فى أمـة ما
لم تكن قد ترقت الامهـــات
أخر المســـلمين عن أمم الارض
حجـاب تشقى به المسلمات

وهذه النماذج منتقاه من شعره على مراحل وفترات مختلفه من حياته .

ويسجل الزهاوى فى بعض رسائله أثر قضـــية المرأة فى حياته فيقول : وعزلت عن وظيفتى فى كلية الحقـوق بسبب دعوى

عن حقوق المرأة .. والى اذ الذى نظمت قصيدة امرأة الجندى يوم لم يكن فى بغداد شاعر يعرف الشعر فى اصلاح المجتمع .

ويقول الزهاوى فى موضع اخر من رسالته مصورا أثر شعره فى المرأة فى ولايه ناظم كانت جريدة المؤيد فى مصر قد نشرت لى مقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة وأخذ المتعصبون يرغون ويزبدون ويدعوننى بالسب واللعن . وكان التعصب فى بغداد يومئذ ذا صولة فلم يسع الوالى غير عزلى من وظيفتى ارضاءا للرأى العام .

كما أدى قيام القيامة ضد الزهـــاوى عليه الى لزوم داره خوفا من القتل بعد أن تحرش به دهماء الشعب .

ولقد كان لدعوة الزهاوى أثرها فقد لقيت صدى ايجابيا بالرغم من حملة خصومة عليه من أجلها .. وفتحت الباب أمام تعليم الفتاة فى العراق .

فنـــون شعره

أصدر الزهاوي ديوانه عام ١٦١٤ (طبعه خيرالدين الزركلي بالقاهرة) وقد ضم شعره من عام ١١٠٧ – ١١٤١ هجريه (١٨٨٨–١٦٢٤) في خلال ستة وثلاثين عاما وقد كتب على صدره هذه البيت

اذا الشعر لم يهززك عند سماعه

فليس خليقا أن يقال له شعر

وقد ضم الديوان خمسة عشر بابا تعطي صورة التجديد وحسن التنسيق عند الزهاوي .

- الشهقات : في الغرام
- هواجس النفس : في مطالب فلسفية
- احاديث شجون : في القصص
- الدم والنار : في الحروب
- المشاهد : في الوصف
- الدموع الناطقة : في المراثي
- أنين المجروح : في البث والشكاة
- القارعات : في الحث على التقدم
- الشعر والشعراء : في القريض والشاعر
- الليل والنهار : في الاجتماع

• وحي الضمير : في الوطن
• المرآة : في النسيب
• فلق الصباح : في الترحيب
• بقايا الشفق : في مطالب شتى
• الخطرات : متفرقة

وتعطي هذه الابواب صورة شعر الزهاوي كله عند اصدر هذا الديوان وهو في سن الستين . وقد استطاع ان يضرب في جميع مجالات الشعر وفنونه وألوانه محبا ومصلحا جتماعيا وسياسيا وراثيا ووطنيا .

وقد ظل الزهاوي في شعره ينبض بحرارته حتى بلغ سن السبعين .. وشارك في محاربة الظلم والاستبداد والرغبة في رقي الشرق ومقاومة الخرافات التي دخلت الى الاسلام ومقاومة الخرافات التي دخلت الى الاسلام ومقارعة الحجاب وسلطان رجال الدين وان كان كل ما قاله لم يكن جديدا .. الا انه سبق زمنه بمائة عام . وتقدم الشعراء جميعا في هذا المجال .

وفي الزهاوي روح من دعوات جمال الدين الافغاني ومحمد عبده للاصلاح السياسي والمدني وفيه من الكواكبي حملته على الاستبداد .

والزهاوي يرى كل قصيدة هي القصيدة الاولى والاخيرة فلا يبالي أن يكرر فيها ما قال في قصائد أخرى

ويقول في مقدمة ديوانه : ربما عرف المطالع شعري حالة بلادي السياسية ودرجتها من الرقي في السنين التي عشت

فيها وعرف عن حياتي ما لم يعرفه من التراجم الطويلة

واعتبر شعر الزهاوي دعوة الى الحرية والتجديد والثورة الدائمة على الجمود والتقاليد والقيود الفكرية والاجتماعية فقد كان يؤمن بأن الشرق لايتم له التقدم الا اذا تحرر من هذه القيود التي غلت تفكير ابنائه

وبيتاه هذين يرمزان الى مذهبه واتجاهه هذا :

سئمت كل قديم عرفته في حياتي

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

غير اننا اذا ذهبنا نقارن شعر الزهاوي في ديوانه هذا مع ديوانه الاول الذي أصدره عام ١٩٠٧ اي قبله بأكثر من خمسة عشر عاما وهو الكلم المنظوم نجد فارقا بعيدا . فقد كان ديوانه الاول مجموعة من القصائد التي قالها أيام الاستبداد ونشرها في الصحف المصرية بتوقيعات رمزية خوفا من السجن .

وكان الزهاوي راضيا عن الاتراك والسلطان في أول الامر ثم تغير رأيه عندما بدأ الاحرار الاتراك دعواتهم فاصبح موضع رقابه شديدة مما حمله الى العودة الى العراق مخفورا .

ولما رأيت الغدر في القوم شيمه

وان مجال الظلم فيها يوسع

وان كلام الحق ينبذ جانبا

وان أراجيف الوشاية تسمع

خشيت على نفسي فأزمعت رجعة

الى بلدي من قبل اني أصرع

وهل راحة في بلدة نصف أهلها

على نصفه الثاني عيـــون تطلع

تراقب أفعالي وكل عشـيه

الى «يلدز» عنى التقـــارير ترفع

ويقول الزهاوي في المقارنة بين الشرق والغرب

الشرق ما زال يحبو وهو مغتمض

والغرب يركض وثبا وهو يقظان

والغرب أبناؤه بالعلم قد سـعدوا

والشرق أبناؤه في جهلٍ كما كانوا

الزهاوى شاعر القومية العربية

الزهاوى «شاعر الحرية» ما فى ذلك شك ولا ريب .. لقد عاش الحرية حياته يوما يوما وساعة ساعة .. كان كل ... وقودا لهذه الشعلة المقدسة . شعلة الحرية . فقد كان يحب الحرية حبا يفوق كل حب ويدعو اليها ويطالب بها ويفنى لها . وهو اذا حرم منها ضاق بها وظل يصرخ صرخاته القوية لجبارة .

والزهاوى شاعر القوميةالعربية غير مدافع .. حمل لواءها ودعا اليه منذ خمسين عاما وضج بالدعاء .

ولقد عاش الزهاوى فى عصر عبد الحميد .. وعاداه .. وأرسل اليه قصيدة صائحا بدعوة الحرية فى وجه الرجل المستبد الذى كانت الناس تخشاه وتحمل فى سبيل صيحته من أذى وسجن ونفى وخراج .. ولكنه ظل مؤمنا بدعوته .. ومضى مواصلا اياها .. فاذا ضاقت به العراق عن أن يعرف فيها كلمة الحرية أرسلها بالبريد الى مصر لتنشر فى صحفها رمضاء مستغار .

واذا قلبنا ديوانه وجدنا شعر الحرية هو أغلب شعره وأعمه ، وهو أصدق شعره وأشده أثرا فى النفس

أبناء دجلة والفرات نيام

عن حقها وتسرها الاحلام

واذا الحقائق لم تجد فى امه
سندا تقوم مقامها الاوهام
ان العراق به يعيش لشقوة
شعب يسام الذل ثم يسام
الهوه حتى صار فيهم طابعا
من طول ماصفعتهم الايام
لو كلفوا مشيا على راسهم
لمشوا كان رؤوسهم اقدام

فهو يدعو أهل العراق الامجاد فى صيحة جبارة قوية ان صبروا ولا تحتملوا الذل ولا ترضوا به .

لا يبتغى استقلاله شعب له لم يستعدا
شعب اذا لم تستبد به حكومته استبدا
شعب يلم بشره و ذا الم فلا مردا
شعب يظن الجد هزلا كله والهزل جدا
شعب يعرض للطام بكل يوم منه خدا

ولكن الشعب كان قوى الشكيمة لم يغفر للاستبداد ذله فثار ثورة حامية حرقت على الدخيل الاخضر واليابس وهو لا يدعو بغداد وحدها الى الحرية ولكنه يدعو الشرق كله .

عظيم على الافكار فى عصرنا الحجر
اما كل انسانه بآرائه حر

وهل فله الشعب المريد انطلاقه
من الاسر ان الحجر فيه هو الاسر
وهل نافع تحريره من اساره
اذا لم يكن فى راسه حرر الفكر
وأى رقى فى الحياة ميسر
لقوم يقول الحق ما أن لهم جهر

يرومون للافواه كما يعنفهم
وذاك لعمرى ثم ذاك هو النكر
اذا الشرق لم ينفع من القطر غله
باكباده الحرى فلا نزل القطر
لقد طال ليل الشرق بعد نهاره
أما بعد ليل الشرق محلولكا فجر
ولابد من أخذ العروبة حقها
وان حالت الاقدار أو خذل الدهر

وهو فى هذا يدعو إلى القومية العربية مؤمنا بها وكلما جاءت المناسبات ذكر العراق شعبه المكبل بالقيود ودعا الى الحرية فى قوة

عيد إلم على يأس بمملكة
وليس فيه لجرح سال تضميد
حيث النخيل بسعيه من تزلفه
وعن مواطنه للمعسر تشريد

الحق يوطأ بلا استخدام محتقا

وما هنالك يحمي الحق صنديد

كانت مطالبه الاقوام قاطبة

ومطلب العرب المهضوم مردود

وما بذل بلاد العرب من جدل

ولا بذل بلاد العرب مسعود

وهكذا ينكشف الزهاوي في كل شعره على انه ليس شاعر الحرية فحسب ولكنه شاعر القومية العربيه لما يؤمن به العرب ويعملون له ·

وهو محب للوطن · صادق الحب · يكره هوانه و يواجه حكامه بالنقد

احديث بالوطن شبابا بارضه

ومرحت فيه يافعا وغلاما

بالذل لا ارضى وان سمحت به

روحي وارضى بالحمام زؤاما

حتى الذين اذا الهوان اصابهم

تخذوا الاباء من الهوان عصاما

يا قومنا لا نفع في احلامكم

فتخذوا الاباء من الهون عصاما

يا قومنا لا نفع في أحلامكم

فخذوا الحقائق وانبذوا الاحلاما

اني لارباً ان أكون مجبنا

في الحادثات ولا أكون حساما

والله يريد الظالمون لنفسهم
بالظلم من شر يلم سلاما

ولست أعتقد أن أدب القوة يمكن أن يؤدى بأقوى مما أداه الزهاوى فى قصائده الحماسية الثائرية التى دعا فيها الى الحرية ..

فهو حامل مشعل الحقائق يدعو الى نبذ الاحلام والاوهام، وهو داع دائما وأبدا الى الاباء من الهوان والى نبذ الرضا والتسليم والى قبول الحمام والموت دون الاوطان وحرياتها وكراماتها .

وهو فى ابان الحكم العثمانى يقذف الدولة العثمانية بأسواط ملتهبة من شعره يشوى بها ظلمات الليل البهيم الذى يعيش فيه العرب

وما هى الا دولة مستبدة
تسوس بما يقضى هواها وتعمل
فترفع بالاعزاز من كان جاهلا
وتخفض بالاذلال من كان يعقل
الا انما بغداد قد أصبحت بهم
يهددها داء من الجهل معضل
وقد عبثت بالشعب أطماع ظالم
يحمله من جوده ما يحمل
فتعسا لقوم فوضوا أمر نفسهم
الى ملك عن فعله ليس يسأل

فيا ملكا في ظلمـــه ظل مسرفا

فلا الامن موفور ولا هو يعـــدل

ولعلها أول صيحة في الشعر العربي لمواجهة ظلم عبدالحميد يرتبط فيها الزهاوي بصاحبه الكواكبي صاحب كتاب مصارع الاستبداد .

نحن في غفله نيـــام وعنا

نائبات الزمان غير نيـــام

نحن في دوله تدار لهــــا الله

تبيح المحظور للحـــكام

وعدوها بالاصـــلاح جم ولكن

لا يجوز الاصـــلاح حد الكلام

نحن قوم قضت ارادة شـــخص

واحد أن نعيش كالانعـــام

ايها الظالم اغتصبت حقـــوقا

قد حبـــاها الانام رب الانام

وما اظن أن السلطان عبد الحميد واجه من الهجـــوم مثل ما واجهه به الزهاوي شاعر الحريه والقومية العربيه

قد أسمعتك أنينهـــا الاوطان

بضعيف صوت ملؤها الاشـــجان

مدت اليك يد التشـــكاة لانهـــا

قد عاش فيها الظلم والعـــدوان

أدرك بها الضعفاء واســـتعجل فقد

عز النصير وقلت الاعـــوان

ان كنت تنصرها وتحمي حوضها
عن غاصب فلقد اتى الابان
أدرك بنصر امر قومك انهم
ظلموا فريع الشيب والشبان

وهو مايزال يحمل على الظلم حملات متعددة .. لايتوقف ولا يتراجع .. وانما يمضي بقلمه البتار يعدد اثام الظلم وشره ويدعو الى العدل الذي هو الحرية

خفف من الظلم ابقاء وتهوين
فالظلم يقتلنا والعدل يحيينا
يا مالك الامر ان الناس قد ضجروا
عامل برفق رعاياك المساكينا
لهوت عنا بما أوتيت من دعة
فابيض ليلك واسودت ليالينا
ليست طريقك محمودا تغبنها
فابدأ اذا شئت في الاحوال تحسينا

وهو من دعاة السلام . يكره الحرب وينفر منها

الحرب للمتهوسين
هي الطريق الاعسر
الحرب لولا أن تحس ضرورة لا تشهر
تفني الذي هو ظافر
وتذل من لا تظفر
في الحرب لا تلقى من الفئتين من لا يخسر

فاذا أهل الدستور الجديد عام ١٩٠٨ استقبله الزهاوي

فرحا به مضيت موقف حيه جديده للعرب وباب جديد للحريه

البرق اهدى لنا بسرى بها امنت
أرواحنا بعد طول الخوف والرهب
بسرى كم نبتغي الامال صادقه
احبها الناس من قاصى ومغترب
صاحت لفرحه هذا العيد أفئدة
كانت تئن من الارزاء والنوب
صاحت سرورا وكانت قبل فرحتها
تدعو على كربها بالويل والحرب

ويمضى الزهاوى دعيا الى الحريه مؤمنا بها لايخشى من الترك فاذا بدا العرب يتحررون من نير الترك ويتمنى الترك يكيدون للعرب ويرجمهم بالحقائق

ومن فئه الاصلاح الا كبارها
يعزل بالقطر الذى ليس يعزل
لهم اثر للجور فى كل بلدة
يمثل فى أفعالهم ما يمثل
اذا نزلوا أرضا تفاقم خطبها
كأنهم فيها البلاء الموكل

ونبلغ الزهاوى قمة ايمانه بالحرية فى قصيدته الذائعة يرثى بها من شنقهم أحمدجمال باشا السفاح والى الترك على سوريا من أحرار العرب

على كل عود صاحب وخليل
وفى كل بيت رنة وعويل

وفي كل عين عبرة مهــــــراقة
وفي كل قلب حسرة وغليـــــل
عــــلاها وما غير الفتوة سلم
« شباب تسامي للعلى وكهـــول »
كأن وجوه القـــــوم فوق جذوعهم
نجوم سماء في الصــــباح أفول
كأن الجذوع القائمات منــــــابر
علت خطبــاء عودهن تقـــول
لقد ركبـــــوا كور المطايا يحثهم
الى الموت من وادي الحيــاة رحيل

اجالوا بهانيك المشــــــانق نظرة
يلوح عليها اليأس حين تجـــــول
وبالناس ان حفـــوا بهم يخفرونهم
وقوفا وفي أيدي الوقوف نصـــول
دنوا فرقوها واحدا بعد واحـــــد
وقالوا وجيزا ليس فيه فضـــــول
فمن سابق كيلا يقـــال محــــاذر
ومستعجل كيلا يقال كســـــول
ولله ما كانوا يحســــــون من أذى
اذ الارض تنــــأى تحتهم وتزول
واذا قربوا منهــا واذ صــعدوا بها
واذ مس هاتيك الرقاب حبـــــول

وما هي الا رجفـــه تعترى الفتى
مفاجاة والرأس منه يميــــل
مشوا في سبيل الحق يحدوهم الردى
وللحق بين الصـــالحين سـبيل
ستبكى على تلك الوجوه منـــازل
وتبكى ربوع للعـــلى وطلول
وأعظم بخطب فيه للمجد شـقوة
وفى جسد العليــــاء منه نحول
سرت روحهم تطوي السماء لربهـا
وما غير ضوء الفرقدين دليــــل
ولله عيدان من الليل أثمرت رجالا
عليهم هيبة وقبـــول
هوت أمهم ماذا بهم يوم صــلبوا
على غير ذنب كي يقال دخــــول
سوى أنهم قد طالبـــوا لبلادهم
بأمر اليهم فخره ســـيؤول
ونادوا باصلاح يكون الى العـــلى
وللنجح والعمران فيه وصــــول
فما رد عنهم بالشفاعة عصبة
ولا ذنب عنهم بالســـلاح قبيل

وهكذا يصل الزهاوى الى القمة فى ايمانه بالحرية ودفاعه عن القومية العربية

وهو لم يقف عند حد مقاومته للعثمانيين ولكنه ظل يقاوم الانجليز في العراق في كل مناسبة يحس فيها بأنهم يقفون حرية الشعب أو يغصبون حقه الشرعي

تلغى معــــاهدة وأخرى تعقد
والشعب يستفتى لهـا ويهـدد
والشعب يطوى للجـــالة خنجـرا
فى صـــدره عما قريب يغمـد
وكان يوم الغاصـــبين لحقهم
ليل وهذا الليــــل بحر مزبد
والشعب بالقيد الثقيـــل مكبل
حتى يكاد اذا تحــــرك يقعد
للبعض كــــوخ واطىء ولبعضهم
صرح كما شـــاء النعيم ممرد

والزهاوي بعد هذا كله بشر فاذا أخذ عليه نقاده ضعفا في بعض مراحل حياته أو موقفا هنيا فانما يجب أن نذكر انه كان يعيش في فترة من أحلك الفترات التي كان يمر بهـا الشرق حيث الاستبداد والاستعمار والبلاء كله يصب على الامةالعربية من الترك والانجليز على السواء وان روح المقاومة الفعلية لم تكن قد أخذت بعد صورتها الحية القوية التي نراها اليوم • فهو بالنسبة لجيله في دعوة الحرية والقومية العربية سباق متقدم عن جيله وقد رجحت حرارة ايمانه وصـــدق كفاحه بما أخذ عليه رجحانا كبيرا

بغداد في شعر الزهاوي

احب الزهاوي بغداد حبا قويا عميقا صادق لم يتغير ولم يتحول وقد سجل في شعره في مدح المواضع شغفه بالعراق وحبه له ولكن حبه لم يكن تقليديا يصوغه مدحا · وانما كان حبا بصيرا يحمل معنى الايمان بالوطن · والدعوة الى تحريره وتخليصه من قيود الفكر وقيود الاجتماع وقيود السياسة ·

وقد كان يكره بغداد احيانا حين كان يحكمها المستبدون من الاتراك :

كراهيتي لبغداد في شدة وازدياد
ابدل لي قربها بالبعاد
كرهتها نفسي وملّ فؤادي

وهو في هذه الفترة يسميها دار الظلم والجهل والفساد
ويقول انه في كل يوم مصيبة تتجدد ومشكل يتولد

أين ذهن قد كان يشبه برقا
سرعة في فهم الامور يخفق
حرقته نار التوقد حرقا
انك اليوم لو تفتش تلقى
جمرة منه في ركام الرماد

ذلك أن الزهـــاوى الانوف المعتز بشخصيته كان يود أن يختار لعمل ممتاز يليق بمكانته وشعره .. فهو فى غير مكانه ثم هو يلقى حملات الخصوم من حوله فلا يلبث أن يقول :

ســجن بغــداد فى الحقيقة قبر
موحش فيه تدفن الاحيـــاء .
حجرات فى جوفهــا ظلمـــات
فهى فى الليل والنهــــار سواء

وقـد ظل يحس بأنه دون قـدره .. وانه لم يعط ما كان خليقا به .. فحمل على العراق فى صورة حكامها من العثمانيين

اننى اليـــــوم فى بلادى أسير
ليت شـــعرى متى يكون فكاكى

وفى ابان هذه الازمة النفســية فكر فى الهجرة الى مصر فنظم قصيدته الخماسية

« أنت مصر ملجأ الاحرار » وفيها يقول :

شاعر بالعراق ينظم شــــعرا
فيرى دون نشــــر ما قال عسرا
فيهادي به على البعــــد مصرا
حيث يلقى الشــعر المهذب نشرا
ان مصر ريحانة الامصـــــار
تبلغ النفس عند مصر منـــاها
طيب الله بالســـلام ثراها
بلده حبيب النجاح ســــقاها

يجد الحر منصب بي دراه
أنت يا مصر ملجأ للاحرار

كان ذلك في أوائل القرن العشرين .. عندما فكر الزهاوي في الهجرة من بغداد الى القاهـرة . وخرج غاضبا ولكنه لم يلبث أن عاد بعد قليل الى بغداد

وكنت هبطت قبل سنين مصرا
فلم أحمد وفضلت الايابا
ذكرت مواطنى وذكرت أهلى
وليلى والصبابة والشبابا
وقلت لقد نأت بغداد عنى
فليت الدهر يمنحنى اقترابا
ولو أنى رجعت الى بلادى
لقبلت المنازل والترابا

وهكذا يبدو حبه لبغداد قويا دافقا حتى انه لا يلبث أن يقول :

انى اذا احتاج العراق فبالحياة له أجود
ان لم أذد أنا عن حقوق للعراق فمن يزود

ثم يعتدل رأيه في العراق بعد أن تتكشف غمة الحكم العثماني ويبدأ الحكم الوطني بعد ان يلي الملك فيصل الحكم في العراق :

قد ذقت صابا فى حياتى بالعراق ، وذقت شهدا
ولقيت فيما قد لقيت بموطنى بخسا وسعدا
ورأيت بعد المد جزرا ثم بعد الجزر مدا

وقد شارك الزهاوى فى الحياة السياسية فى العراق مشاركة فعلية حتى ليشغل ديوانه جانبا كبيرا من صورهذه الحياة .. صور فترة الظلام التى سادت العراق أيام عبد الحميد ثم كيف تكشفت السحب عند بدأ عهد الدستور فى الدولة العثمانية ثم كيف بدأت العراق تقاوم الاحتلال البريطانى فى العراق ويقيم الحكم الوطنى فيه

ونظم الزهاوى شعرا فى استقبال فيصل وفى استقلال العراق وفى الحياة النيابية وشارك فى استقبال غازى وبدء حكمه .

وقد سجل الزهاوى فى مذكراته التى عرفت باسم رسائل الزهاوى حالة العراق عند مولده عام ١٨٦٣ فقال : كان عدد سكان بغداد فى العهد الذى ولدت فيه مائتى الف نسمة تقريبا وحالتها الاجتماعية يومئذ منحطة ولا غاية لاكثر رجالها الا التزلف الى الحكام الاتراك وولاتهم ولا منافسة الا فى الرتب والالقاب .

وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٣٢ (وقت تحرير مذكراته) ٣٥٠ ألفا وكانت العراق فى رحاء غير ان الجهل كان يسود أكثر أهله ولم تكن فيه يومئذ هذه المدارس المدنية المنتشرة فى أنحائها الا الكتاتيب والمدارس القديمة الدينية وكان التعصب شديدا .

وفى بعض شعر الزهاوى يذكر العراق فيقول :

أنا والحق في العراق مضـــعان
وما فيه غيرنا بمضـــاع
واذا جرت البقايع شـــقاء
لمقيم فتلك شر البقـــاع

وقد صور الزهاوى بغداد فى أكثر صورة جميلة رائعـــه مسجلا انها هى التى أوحت اليه الشعر :

هنا فى بغداد على ضفة دجلة سماء صافيه زرقاء تلمع فى ليلها النجوم فرادى وازواجا واشـتاتا وركاما وأرض خضراء أديمها هى منبت جسدى وعقلى وأصحاب يوالون وأعداء يناوءون وجهاد مستمر وآمال بيض وبأس أسود .. وفساد فى النظام وعادات سيئة تضر بالمجتمع ونفس لى حرة لا تقدم على الضيم كل ذلك قد انطقنى شعرا هو شعور كان يجيش فى نفسى قبل ان إنطق به .

بين الزهاوى وخصومه

عاش الزهاوى حياته في حرب متصلة بينه وبين خصومه هو بعناده وجرأته واندفاعه في اعلان الرأى الجرىء وخوض معارك الحرية ومهاجمة العـــادات المألوفة يثير في كل يوم خصومة مع الحكام والـولاة ورجال الدين والمحافظين • ولم يكن الزهاوى يصبر على النقد او يبتسم له أو يسـخر منه • وانما كان يواجهه في غيظ وكراهية وألم • يبلغ به أحيانا حد البكاء •• وقد يدفعه الى التفكير فى الهجرة والخروج من ارض الوطن •

وقد احتال لاعلان آرائه بكل وسـيلة •• كان ينشر آرائه وقصائده بتوقيع رمزى •• وكان ينشرها فى غير صـحف العراق •• ولكنه لم يكن يتنازل عن تصـميمه وهو لم يعش يوما دون معارك او خصومات مندفعا في حماسـة وعاطفـه وعناد •• وقد سجل انه كابد فى حياته مزيدا من الشـقاء والاضطهاد • وأنه رأى عادات سيئة وفساد •• وأن نفسـه الحرة دفعته الى أن يقاوم هذا كله ويعمل على ازالته • وقد شغل الرأى العام بآرائه الجديدة الجريئة تخلق خصومات ناقده كانت تواليه بالتقريع والهجاء •

وقد صور الاستاذ ناصر الحاني في محاضراته عن الزهاوي هذا الجانب من حياته فقال : وأغرب ما في أمـــره ان اندفاعه المشهور وحماسته التي جاز خبرها حـــدود الرافدين · وقد اعتراها صمت طويل وصحب هذا صـــخب عليه · وتقول متضارب في وطنيته وقوميته · وقد عزز هذا التقول ما اسندته السلطة المحتلة من مناصب للزهاوي قد لا تكون اعلى منه مقاما ولكن الظروف التي عهدتها اليه نابية جائرة فصـــارت وبالا عليه · وظل في حيرة من أمره وصار الناس ينظرون اليه بعين الشك والارتياب ولا يطمئنون اليه فكثر أعداؤه ومنـــاوموه وكثر الذين يريدون أن يوقعوا به ·

ولم يكن ليحتمل ما وقع له فظل مضطربا يخشى النـــاس ويتوهم أنهم سيوقعون به لا محالة ·· وكأنه أدرك فشـــله بالمشاركة بأقسى محنة عرفتها (١) بلاده · فحـــاول ان يرود بالتقاليد التي رزح فيها الناس والمشـــكلات الاجتماعية التي تحفهم فحمل على العقائد البالية · ودعا الى التحرر الفكري ·· ومساواة المرأة بالرجل · ولم يكفر هذا سيئته عند الناس · فقد حاول أكثر من مرة أن يهجر العراق بعد أن توالى عليـــه النقد والتقريع ·· فقرر السفر الى سوريه بعد سنتين ·ضته على الثورة ولكنه لم يسافر الى سوريا وسافر الى مصر ·

(١) ثورة العراق عام ١٩٢٠

وهو فيما يتصل بهذا قال قصيدته :

سأرحل عن بغداد رحـــله عائف
فقد طال في دار الهـوان قعـودي
وأفرح من آلي ومـــالي وموطني
وما كان لي من طارق وتلبـــد
ولم في عمـــري كبغداد منزلا
به العلم لا يجزى بغير جحـــود
رأيت بها بؤسا وشـــاهدت نعمة
فلم أسترح من شـــامت وحسود

يقول الاستاذ ناصر : ولم يستطع الزهاوي أن يطيل مكثه خارج العراق فكانت غيبته استجماما فصدفت الناس عنه قليلا فاستطاع بعد عودته أن يخوض غمار الاحداث العـــامة وأن يوقف نفسه لها فيثيرها ضجة على الحكومة .

والواقع أن الزهاوي كانت له مع اهل وطنه مواقف لعلهـا هي التي دفعتهم الى الحمـــله عليه . ولعلها هي التي جعلته يسرف في الدعوة الى التجديد والحرية وتحرير المرأة .

ومن أهم هذه المواقف : مديح الزهاوي للسلطان عبدالحميد أولا ثم حملته عليه .. وفي ديوانه الكلم المنظوم قصيدة يقول فيها :

لسلطاننا عبد الحميد ســـياسة
طريقتها في المعضـــلات هي المثل
ماذا على الســـلطان لو أجرى
الذي يشتاقه الاحرار من اصـــلاح

سللت لنصر الدين سيف وعـزمه

فللت به ما لم يكن فيه سـهلا

فجهزت جيشا للجهـاد عرمرما

قهرت به ذاك العـدو الذى ولى

ومن هذه المواقف قصيدته فى مدح الانجليز والتى جعـل عنوانها ولاء الانجليز (١) وفيها يقول :

وجدت الانجليز أولى احتشـام

أباه الضيم حفاظ الزمـام

أحب الانجـليز واصطفيهم

لرضى الاخـاء من الانام

ولقد كان لهذه القصيدة أثر مظلم شديد الظلمة على حيـاة الزهاوى فقد لحقه عارها طوال حياته وكانت كما قال الاستاذ ناصر من أسباب حملة خصومه عليه وهجرته .

وقد كتب الزهاوى فى رسائله (٢) معلقا على هذا الحادث الخطير فقال : لما ذهبت الى الاستانة واختلطت بالترك الفتيان أبعدت بالتجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعارة فى أمهات الصحف المصريه . وقد ذهبنا فى حـرب الانجليز والبوير جماعة من الترك الاحرار نتمنى للانجليز الفوز فى محاربتهم وذلك بفرار من الحزب المناوىء لعبد الحميد .. يريدون بذلك أن يعضدهم الانجليز فى طلب الدستور . وقد نظمت بعد

١ ـ ديوان الكلم المنظوم

٢ ـ الكاتب المصرى ـ ديسمبر ١٩٤٦

الغايه قصيدة أمدح فيها الإنجليز وأشدو بقوة أسطولهم . وقد نشرت في أول ديواني (الكلم المنظوم) والى الان يعيبني ناقدي على هذه القصيدة . ولكن من كنت يومئذ أعرف أنه ستحدث حرب عالمية ويحتل العراق . هذا ما لم يخطر في بال أحد .

وهو دفاع ضعيف ولاشك .. ولعل الزهاوى قد حاول بعد ذلك ان يدفع بشعره في مجال الكفاح الوطني ليغطى على هذه القصيدة وهو أن كان قد رثى بعد ذلك أحرار سوريا الذين شنقهم أحمد جمال السفاح فأنه صور الثورة بصورة الوبال على البلاد .

وقد كان مما أخذ عليه انه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت واحد من الشعر ، وقد كان مما أخذ عليه أنه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت من الشعر

ومما يسجله الزهاوى في هذا الصدد ويأخذه عليه خصومه انه عندما وقعت الحرب العالمية واحتلت الجنود البريطانية بغداد .. أرادت أن تأخذني الى الهند أسيرا . ولكني أبرزت ورقة فيها صراحة بأنى مكاتب جريدة المقطم فأفرجوا عني .. وكانت هذه الجريدة موالية للانجليز

وقد صور الزهاوى موقف خصومه منه في بعض شعره :

قالوا دخيل في القريض فما أجاد ولا أجدا
قالوا صغير لا يعد من الفحول ولن يعدا
قالوا الى الاحسان منه غيره في الشعر أهدى
وله جراءة فيلسوف يوسع الاديان مجدا

ويصور خصوماته دائما بأنها في سبيل الفكر

وما أن لي الى الجهـــال ذنب

فيغريهم بنفسي ان يكيــــدوا

سوى أني مخـــالفهم واني

لكل خرافة منهم جحـــود

وقد توعده قوم بالقتل لجراة رايه ولكنه لا يبالي بهم :

توعدني بالقتل قـــوم وانما

لكل امرىء في الموت يوم وميقات

برئت من العلياء ان كان لي بما توعد في القوم اللئام مبالاة

وربما أراد الزهاوي أن يكفر عن هذه الاخطاء فقال في مقدمة ديوانه الذي أصدره عام ١٩٢٤ « ما حمدت الا من ظننت فيه خيرا للبلاد وربما خاب ظني في بعضهم فكففت »

قد مدحت الذين لم يســـتحقوا مدائحي

أحســـبوها على ضرورتها من قبائحي

ومن المآخذ التي سجلها هو على نفسه مدافعا عنها قوله قد يعلق بذهن الشاعر شطر من بيت سمعه لمتقدم فياتي بعد سنين في تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام لذلك • وهو ناس أنه منقول • فتقوم عليه القيامة ويرمى بالسرقة ..

كما يعتذر عن بعض شعره الذي وصف بأنه نظم ركيك أو سطحي المعاني :

لا أغالي فربما قلت شــعرا

لم أكن في قرضي له بالمجيـــد

منه بكر بطرى ومنه عـــوان

لم يحز رتبة الكعــاب المزيد

قلته لاهما فى شـبابى

من هموم الهوى وبرح الصـدود

يوم للغيد كنت أصبـوا ومن

ذا ليس يصبوا الى الحسان الغيد

ثم أرهفته فكان سـلاحى

ثم غنيته فكان نشـيدى

ثم صيرته مجنا يقينى

من فروق ثغر عبد الحميـد

الزهاوى والموت

للموت فى شعر الزهاوى مكان كبير .. فهو الرجل المجدد الذى حاول أن يقتحم فى الحياة بقوة .. كان يصـــــود فيذكر الموت ويخشاه ويقف عنده وقفات تختلف مع السن .

وهو يصور فكرة الموت وما بعد الموت من أهوال :

للمرأ فى الارض الفضـــاء مســاكن
انى مضى والقبر آخر مســـكن
والموت فوق جنــادل وصـــفائح
كالنــوت حم على فـــراش لين
قالوا وراء الموت أهـــوال ولم
أحفل بما قالـــــوا ولم أتيقن
ولعل هذا الموت مبدأ رحـــلة
للروح خالـــــدة وراء الازمن
وكأننا صور الخيــــال لبرهة
تبدو وتخفى فى شـــــعاع الاعين
قد سرت قبلى للسورى متعجـــلا
ولعلنى بك لاحـــــق ولعلنى
لا تسالونى عن مصـــيرى انظروا
أنا بالعـــــواقب لمست بالمتكهن

ويقول في موضع آخر من القصيدة :

تبني الحيـاة لها الصروح من المنى
والموت يهـــدم كل ما هي تبتني
في الكون هــذا كل شيء ممـكن
الا البقـــاء فذاك ليس بمـكن
لابد من مــوت لمن هو عائش
فأشجع اذا قابلتــه أو فأجبن
ان المــوت لرابض متحين
مـاذا مـراد الرابض المتحين

وفي قصيدة احساساتي يصور الموت في صورة أخـرى. وقد نظمها قبل موته بشهور قلائل وكان قد نزل من السيارة عند باب السوق في بغداد يريد مقابلة أحد الكتبيين فسقط مغمى عليه فحملوه الى داره فقال .. قلت لعل يومي قد اقترب وهي آخر قصيدة قالها قبل موته :

قد أتى يا منيتي أن تعـودي
بي الى حيث كنت قبل وجـودي
ليس من هذا المـوت لأنفس بد
فهو للناس من تراث الجـدود
يا أماني فارقيني ويا نفس وداعـا
ويا حشاشه جـودي
لا تخافي على هالموت سـهل
لا .. كما ينعتونه بشـديد
لاتخافي ليس على الارض ولا في سمائها بجديد

ولجل الصبا بغير رخاء
فوق ملجودتي فبنعش عودي
لا أنيس ولا نسيم ولا نور
يزيل الظلام عن ملحودي
يوم لا نبصر الربيع
ولا نصغي لانغام البلبل الغريد
يوم لا تطلع النجوم علينا
باسمات من السماء كخود
يوم لا يسفر الصباح لنا
من جانب السماء قائما كعمود
يوم ايدي الردى تجردني
من كل طارف وتليد
سيقولون شاعر غاب في اللحد
وكم غاب مثله في اللحود
سبقتني الى المقابر موتى
أنا في الراحلين غير وحيد
بعد نومي على فراش وثير
عن قريب أنام في أخدود
لا أنيس ولا نسيم ولا نور
يزيل الظلام من ملحودي
غير اني ما أن سئمت حياتي
وهبوطي وهادها وصعودي

ما بلغنــا من اللبــانات يا نفسى
سوى النــذر بعد جهد جهيد
يمى يا نفسى الســماء فانى
لا أرى فى الثرى طريق الخــلود
ان تلك الســـماء كالارض هذى
حومة تدعى للكفـــاح الشديد
لا يخيفنك اللقــاء بحرب
هى بالنــــار تلتظى والحديد
أنت حاربت للتحرر أعـــواما
طوالا فحـــاربى من جديد
أنت فى الارض مـا تطأطأت حتى
تخضعى فى الســماء أو تستعيدى
انما أنت للتمـــرد لا للخسف
فالرسف فى ثقال القيـــود

وفى هذه القصيدة يبدو الزهاوى وهو على أبواب الموت فى عناده وشماسه وكبريائه .. مدلا بشعره وجهاده فى سبيل التحرير . كما يرى أنه بالرغم من بلوغ السبعين لم يزل يحب الحياة ويرى أنه لم يقض منها الا اللبانات اليسيرة بعد الجهد الجهيد . وانه سيحرم من أنوارها وضحاها وجمالها فى حسرة بالغة ..

ويتصل بالموت شعره فى الرثاء ويمتاز بروح حية وأسلوب طليق وفلسفة عميقة يتصل دائما بالموت والحياة

يرثى المتنبى فى ذكرى الالفية ميقول (١) وكأنه يذكر نفسه :

ما أنت يا أحمد في دوله الادب
الا الزعيم والا شعر العرب
وما تنبأت فى دين كما زعموا
بل فى الفصاحة سباقا وفي الادب
فكان يوحى اليك الشعر عن شحط
وكنت فى قادة الاداب أولهم
وكان يوحى اليك الشعر عن كثب
وكنت أولهم فى الجحفل اللجب
وكنت فى الشعر مثل الماء منطلقا
وكنت فىالحربمثلالنار فىالحطب
كم حكمة لك سارت فى الورى مثلا
قد قلتها بلسان الشاعر الذرب
كم دولة للقريض الناهض انقلبت
لكن عرشك فيها غير منقلب

وقال فى تأبين الشاعر عبد المحسن الكاظمى(٢)وهو منجيله وواحد منأربعة شعراء العراق الجوهرى والكاظمى والرصافى والزهاوى :

صدق النعي ومات عبد المحسن
يا شعر أنعه وإن نعس أحزنى

١ـ الرسالة ٧ يناير ١٩٣٥
٢ ـ الرسالة ١٠ يونيه ١٩٣٥

يا شعر ومحسن قد كنتما
عمرا رفيقي غربة وتوطن
قد عشتما في كل منزلة معا
كالفرق بين اللامعين واحسن
أو زهرتين ولا أراني داريا
أشغفت بالنسرين أم بالنسوسن
حتى احتوته يد المنايا بغتة
بمخالب معقوفة كالمحجن
لمن الزعامة في القريض ومن لها
بعد الحفني الشاعر المتفنن
ملأت قصائده القلوب حماسة
من بعد ماشغلت جميع الالسن
شعر يكاد يسيل منه لفظة
مثل الندى من رقة فيهزني

عقيـــدة الزهاوى

كانت عقيدة الزهاوى هى بؤرة نقد خصومه .. والدعوى المطلقة فى كل مكان .. كان الناس يقـــولون ولا زالوا : ان الزهاوى كافر وملحد وزنديق ولا يؤمن بالله ولا باليوم الاخر. ولا بالبعث والنشور. وهو اتهام يوجه الى كل شاعر مجدد. وكل مفكر جرىء وكل مصلح سبق زمنه .. او أديب أراد أن يهز حياة قومه الجامدة .. وما من كاتب أو مفكر او شاعر لمع اسمه وتألق الا وكان له من خصومه مثل هذا الاتهام .

فهل الزهاوى حقا ملحد . وما هى عقيدته .. لندع شعره فى مختلف مراحل حياته يكشف لنا عن الحقيقة .

فى ديوانه الكلم المنظوم الذى أصدره عام ١٩٠٧ وهو أول دواوينه يقص القصـــة على لسان امرأة تحدثت معه فى هذا الشأن قالت :

أأنت الذى بالزعم يذكر اننـــا
اذا ما ردينـــا لم نعد مره أخرى
فتنكر بعد الموت عود حيـــاتنا
وتجحد فى أقوالك الحشر والنشرا
فلو لم تكن دار يجـازى بها الفتى
تساوى اذا من يفعل الخير والشرا

ويرد هو في نفس القصيدة فيقول .

ندمت على ما كنت فرطت قبـل ذا
يسوء اعتقاد لي الى الكفـــر جرا
لقد قلت قولا باطلا بجهــــالة
حنـــانك اللهم يا خالقي غفرا
لقـــد تبت عمـا كنت معتقدا له
فان لم تتب ربي علي فواحسرا
شهدت بأن الله ربي واحـــــد
تنزه عن عيب يشين له قـــدرا
اذا غنى الشيطان عن منهج الهدى
وكان يميني فانحـرفت الى اليسرا

وفي هذا اعتراف صريح من الزهاوي بانه انحرف في رأيه ثم عاد فاعتدل مرة أخرى . وفي عباراته معنى التوبة والرجوع الى الحق الذي اعتقده بعد أن عرفه . وما على الزهـــاوي من بأس في هذا ولا ضير :

ويقول في قصيدة : احساساتي

لست أدري أللفنـــــاء سنمضي
بعد ما نموت أم للخلـــود
انني في شك وان مــــلأوا سمعي
بوعـــد يروونه ووعيـد
لا تثق بالجمهور يا عقـــل يومـا .
ان رأي الجمهور غير ســــديد

تأكل الارض كل حي فلا تبــقى
على والــد ولا مولــود
أمم كلهــا ببيد فتأتي
امم أخرى بعــدها للبيود
سوف يقفو ركب الى الموت ركبا
ثم لا أشــدو خلفه بنشيدي

وفي هذه القصيدة يعود الزهاوي الى الشك في الحياة بعد الموت ولكنه لا يلبث أن يقول في نهايتها :

كلما مؤمن يســبح للرحمن
في ظل عرشه الممــدود
انني ما ســجدت يومــا لغير الله
فالله وحده معبــودي

وفي هذه الصراحة قوة وصفاء ووضوح :
وهو في أوضاع مختلفة من شعره يدافع عن نفسه عــندما لاتهام (١)

ما حيــاة قديمهــا غير باد
لك الا تطور في الجمــد
ولقد يهلك الذي يتــوقى
وقد لا يعيش أهــل الحيد
أي ذنب لي أن تبــاعدت
الشــقة بين اعتقادهم واعتقادي

---

١ ـ قصيدة تطور في الجماد . الرسالة ٢٥ فبراير ١٩٣٣

كلما خالف الجمـــاعة في الرأ
ي جرئ رموه بالالحـــاد

وفي قصيدته الضخمة : ثورة في الجحيم .. يحاول تصوير الحاده فيقول :

كان ايماني في شبابي جم ... به نزره ولا تقصير
غير أن الشكوك هبت تلاحيني فلم يستقر بي الشعور
ثم عاد الايمان يقوى الى أن سلمه الشيطان الرجيم الغرور
ثم آمنت ثم الحدث حتى قيل هـــذا مذنب مغرور

ثم دافعت عنه بعد يقين مني يفعل الكمي الجسور
وتعمقت في العقائد قبل هذا عـــلامة غرير

لي ايي في الوقت هـــذا تحـــوفي
لست أدري هـــذا اعتقادي الاخير

وتعطي هذه الابيات صورة الزهاوي وهو بين الايمـــان والالحاد باحثا حتى وصل الى الاقتناع عن طريق العلم والبحث لا بالوراثة والتقليد وهو يقول في شأن عقيدة المقلد وعقيـدة البصير الباحث :

أمن اكتفى بخــــرافه فهو مؤمن
ومن امترى فيها من الكفــــار

ولدى النهـاية جاهل فى جنـة
فيها النعيم وعالم فى النـــار
ولم يدع الزهاوى خصومه ينطلقون فى اتهـامهم له فصرخ فيهم صرخة عارمة :

يا قـوم مهلا . مسـلم أنا مثلكم
اللـه ثم الذاته فى تكفيرى

حكمة الزهاوى

قال نقاد الزهاوى أنه أشبه بالمعرى من ناحية واشبه بالمتنبي من ناحية أخرى وارادوا بذلك انه يماثل المعرى في قصائده الجريئة وآرائه في الحياة والموت وما بعد الموت وحربه على خرافات الدين وأوهام العامة .. وانه اشبه بالمتنبى في اعتداده وكبريائه وفلسفته واعتزازه بشعره وكذلك حكمه المنثورة في طوايا قصائده .

والحق أن الزهاوى كان فيلسوفا وانه كان يتعرض لقضايا الحياة في قوة وجرأة حتى ليمكن ان نطلق على ادبه دائما أدب القـــوة .

يقول :

ليس الحيـــاة سوى نزاع دائم
يا للضعيف به من الجبــار
يا شيب لستم للــوغى فتأخروا
وبدار يا شبـــان ثم بدار
انضوا القديم وبالجديد توشحوا
حتى م تختالون في الاطمــار
وتحرروا من نير كل خـــرافة
خرقاء تلقى الزيغ في الافـــكار

وتحرروا من قيد كل عقيدة
سوداء ما فيها هدى للسارى

ويصور الحياة والموت فى صورة رائعة :

لقد راعنى رزايا توالت
والرزايا اذا توالت تروع
ورأيت الايام تأكل من أعمارنا
فى الحياة وهى تجوع
وكأن الارض التى هى وارت
كل هذى القبور قبر وسيع
وكأن السماء قبة دير
وكأن النجوم فيها شموع
كلما شاهدت المقابر حولى
أخذتنى مهابة وخشوع
ليس للقادمين منا بقاء
ليس للذاهبين منا رجوع

ومع هلال محرم يشدو داعيا أبناء العروبة الى المجد والحرية والكرامة :

ومن لى بعام لا يشابه غيره
أرى فيه أظفار البغاة تقلم
وأبخل أرض بالرجولة يقمه
يضام الفتى فيها ولا يتبرم

أدير عيوني في الوجـــوه فلا أرى
سوى الذل مقـــروءا ولا الوسم
ليحزنني أن الفضـــائل آثرت
خشونا وأن الزهـــر لا يبتسم
بني وطني لا تسكتوا عن حقوقكم
أليس لكم منكم فم يتكلم
لكم ثروة في الارض ألقا بها لكم
وأرباحها للغـــرب نهب مقسم
لا فخر الا للذي هو ماجـــــد
ولا مجـــــد الا للذي يتقحم
وما الحـــر الا من اذا ضيم لم يلن
وان قال حقـــا فهو لا يتلعثم
وما بال أبناء العروبة أصـــبحت
على الذل أشـــتاتا تشب وتهرم
وما بال أبنـــــاء العروبة سلمت
وقد كان عهـــدي أنها لا تسلم
لالام قومي الصـــيد نفسي تألمت
لك الويل يانفس التي تتـــألم

وهو محب للحياة مهما علت به السن يدعـــو الناس الى المتاع (١) بها :

---

١ - قصيدة خطرات - الرسالة - أكتوبر ١٩٣٥

يا نفسي ياتنخدعي بالزاهد المنقطع
دنياك هذى تحتوى على النعيم أجمع
تنعمى بخيرها قبل دنو المصرع
وبالحياة ما صمت تمتعى تمتعى
لكل باب تحسبين الخير خلفه اقرعي
وانتهزى الفرصة قبل فوتها واسرعي
بالبسمات تبلغين السؤال لا بالادمع

وهو اشتراكي يدعو الى المساواة

لايعرف المؤلم فى الحياة الا المؤلم
ألف يعيش بائسا وواحد منعم

ثم يعاود هذا المعنى بصورة أقوى وأوضح :

ان من كدوا يزرعون البقاعا
اشبعوا غيرهم وباتوا جياعا
ربح المالكون الارض غصبا
ومضى كد الزارعين ضياعا
يفقر الدهر ألف بيت ليغنى
واحدا من أفراده جماعا
لا ترى بين أو ليهم ثريا
كانزا للاموال أو مناعا
ومن العدل يكون نتاج الارض
بين المستثمرين مشاعا

ان بين الحق المحصحص والباطل
منذ الدهـــر القديم نزاعا

ولقد ذكر الزهاوى كثيرا انه تتلمذ لابى العلاء وهو يقول مخاطبا اياه في قصيدة له من ديوان الاوشال :

وأني أكبر شيء فيـــك يعجبنى
سخرية من تقاليد وعصـــيان
أنكروا فيك الحـــادا وزندقة
وعل ما أنكروه فيك بهتـــان
انني تتلمذت فى بيتى عليك وان
أبلت عظامك أزمـان وأزمـان
أصابني فى زماني ما أصـابك من
حيف فما رد هـذا الحيف انسان

وهكذا يصل الزهاوى الى أن يربط نفسه بالمعرى في تشابه حياتهما وما لقياه من الجماهير

وقد عارض الزهاوى قصيدة ابن سينا عن الروح فقال :

طارت بعز للســـماء الا رفع
ورقاد كانت فيك ذات تخضـــع
قد كان مسكنها بجسمك ضـــيقا
واليوم تسـبح في مـكان أوســع
الله أرسـلها اليك وبعـد أن
مكثت قليـــلا فيك قل لها ارجعي

وان كان لم يتم عدة القصيدة وقال : حال دون اتمامها مانع .

خدعوها بقولهم حسناء
شعرها الليل والجبين ذكاء
غره ذلك الثناء فلانت
والغواني يغرهن الثناء

ومن شعره الحكمي قوله :

ما أكثر الاخلاق في نفسي امرئ
ان خاشنته الناس لم يخشوشن

وقوله :

ما قلت شيئا بعمى
الا وعقلي مرتمي
أنا ابن عقلي وحده
تنبئي عني كلمي
به اهتديت في شبابي
مثلما في هرمي
ربما كانت أمور
أنا عنهن عمي

دموع الزهـــاوى

لدموع الزهاوى قصة طريفة .. فقد عرف بأنه صاحب دمعة .. وكان هذا مصدرا من مصادر متاعبه . ولطالما ردد فى شعره قصة الدمع .. غير انه عاد فى آخر أيامه . فدعا الدمع الى أن يقر فى العيون .. ويرجع على الاعقاب :

يقول فى ديوان الكلم المنظوم :

الا'ياد مع انك ترجمـــانى
فبين للأحبة ما أعـــانى
اليهم فى فى فؤادى بعض شـــكو
ى لسانك فيك أفصح من لســانى

ويقول :

ابك فان عبرة الباكين سلوى لهم
أليس ثغر الدم فى وجه الحزين يبسم

ويقول الاستاذ ناصر الحانى فى محاضراته عن الزهاوى :

« عرف ان دموعه طيعة ، وانه يبكى اذا ضجر وثار .ويبكى اذا ابتهج وسر . وعرف عنه بعض مناوئيه ومغيظيه هـذا .. فراحوا يثيرونه ويشيعون عنه ما يبعث الفرح اليـه حينا .. وما يغيظه ويبعث الثورة فى نفسه أحيـانا . وظل يعيش فى

عالم خاص به ـ لاسيما فى شيخوخته ـ ويرى أن قومه لم ينصفوه .. »

وهو فى قصيدة : دمعتى يكاد يصور هذه المعانى كلها :

أنت اما أن تخففين مصابى
دمعتى فارجعى على الاعقاب
أنت لا تدرئين عنى دائى
أنت لا تصلحين منه خرابى
أنت لا تجدينى فى شقائى
أنت لا تنقذيننى من عذابى
أنت لا تدفعين وطأة شيبى
أنت لا ترجعين عهد شبابى
أنت لا تقدرين أن تهبينى
راحة أو تسكنى أعصابى
انما أنت قطره ستبلين
اذا سلت بقعة من ثيابى
أو تضيعين بين لحيتى البيضاء
أو تنبضين فوق التراب
ارجعى فالحياة ليست تساوى
ان نخرى من حالق كالشهاب
لا تخرى وان قضى ان تخرى
سبب قاهر من الاسباب

ان نفسي لا ترضى ان تهـــوى
كشجونى وان ملأن أهـــابى
يا ابنـــة الهم . ان غرفتك القلب
فلا تخرجي الى الابـــواب
أنا لم أسأل العيـــون بكاه
لتكونى على السؤال جـــوابى
واذا ما هبطت بالرغـــم منى
طال يادمعتى عليك عتـــابى
أنا ان بكيت أبكى بشـــعرى
ولقد أهديه الى الاحقـــاب
كل بيت منه اذا عصـــروه
دمعـــة ترة على الاداب
بين شعرى وما يجيش بصـــدرى
من شعور وشـــائج الانســاب
أنا عنه محـــدث وهو عنى
وكلانا فى القـــول غير محاب

ويقول فى رسائله ان آلامى المعنوية أكبر من آلامى المادية. فانى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئا استولى على اليأس . وكلما انخدع بالباطل تمزق قلبى من الاسى . . وكلما خضع للظلم شرقت بدمى .

الشعر المرســـل

دعا الزهاوي الى الشعر المرسل وحاوله على أساس انه جزء من دعوته الى حرية التعبير والقصيد . وقد نشر في هلال يونيه ١٩٢٧ قصيدة أطلق عليها اسم « بعد ألف عام ». وقال انها قصيدة من الشعر المرسل الذي استحدثته في الشعر العربي مطلقا اياه من قيد القوافي . ذلك القيد الثقيل الذي تبرم به الشاعر وحببته الالفة الى السمع وما أرى لالتزامه من ضرر غير انه من تراث الماضي الذي بقي دهرا يشل الشعر في مجموعه .. فلا يمنحه حرية لايراد القصص وبث الاراء والوصف كما ينبغي . ولا يدله في الموسيقى التي تجعل الشعر الا وهي الوزن .. وحسبك دليلا على أن البيت الواحد يتمثل به الكاتب فيلذه القارىء عارفا أنه شعر من غير أن يسأل عن موافقته لرديفه في القافية ..

ما أغنى أرجل غواني الشعر عن خلاخيل القافية .. وأغنى السمع عن سماع وسوستها التي تشوش عليه موسيقى الوزن ومن نكد الشعر العربي ان قيد القافية فيه أثقل منه في الشعر الغربي .. بطىء التطور بحسب الحاجات العصرية التي لا يشبعها ذلك القديم الضيق واني لا أريد اليوم رفع القافية من كل أقسام الشعر فذلك عسير على الاذواق التي ألفتها منذ

عصور طويلة وأحقاب بعيدة .. ولكن أي يأس في أن يوجد نوع من الشعر المرسل كما يوجد المقيد - وان يكون هذا النوع خاصا بالقصص والوصف والجدل والحكم حيث ينبغي أن يسير على صوت موسيقى الوزن حرا طليقا في مجال واسع لا يرسف في قيوده مثقلا .

وقد نشرت لي المؤيد في مصر قبل أكثر من عشرين سنة قصيدة بعنوان الشعر المرسل ونشرت لي جريدة في العراق قصيدة أخرى قبل سنتين تقريبا فقامت حول هذه قيامه المحافظين على القديم . وكان لي يومئذ أنصار كما كان لي خاذلون . وقد رددت على نقد الناقدين يومئذ بسلسلة مقالات أثبت فيها أنهم كانوا على باطل ..

والواقع أن الزهاوي حاول أن يكسب أنصارا للشعر المرسل ولكنه هو شخصيا رجع عنه بعد ذلك الى النظم والقافية بعد أن تبين انه لا يرضي الا القليل .

ولعل هذا النموذج الذي نورده من قصيدة «بعد ألف عام» تبين مدى نجاح التجربة .

حكومتهم شبه اشتراكية فما تنعم بأفراد وتشقى جماهير
يعيشون أحرارا فليس مسيطرا عليهم سوى العقل
أحاطوا بأسرار الطبيعة خبرة
فلم يبق عنهم من نواميسها خافي
وقد عرفوا عفو الغريزة كل ما له نحن كنا بالروية نعرف

وإذا ما أرادوا السير فالجو واسع
وأما أرادوا المكث فالارض مهاد
يرى بعضهم بعضا ويسمع صوته
وبينهما الارض القصية تفصل
ويقرأ كل منهم فكر غيره
قديرا فلا تخفى عليه السرائر

وقد كان الزهاوي في هذا يقلد ولز رجول فيرن وغيرهم من المتنبئين .

بين الزهاوى والرصافي

عاصر الزهاوي ثلاثة شعراء في العراق : الرصافي والكاظمي والجواهري .. ولكنه ارتبط في ذهن الكثيرين بالرصافي . ولعل مرجع ذلك الى أنهما كانا كفرسي رهان في ميدان واحد : وقد وصف كل منهما بالجرأة على المعتقدات .

والواقع أن الزهاوى ولد سنة ١٦٨٣ توفي عام ١٩٣٦ وعاش ٧٣ عاما والرصافى ولد عام ١٨٧٥ أى بعد الزهاوى باثنى عشر عاما وعاش حتى سنة ١٩٤٥ وبلغ من العمر سبعين سنة .

وقد قيل كثيرا أن هناك خلاف بينهما ولكن الزهاوى قال غير هذا فى بعض قصائده ان الرصافى بالنسبة له كهارون الى موسى وقدم نفسه كعلاته

وانى بمعروف لأعتز انه
أخو ثقة والحر يعتز بالحر
كلانا يريد الحق فيما يقوله
وانى واياه الى غاية نجرى
فخذ بيدى اللهم فى كل دعوة
وهذا أخى معروف فأشدد به أزرى

كما أشار الزهاوى فى رسائله (يناير ١٩٤٧، و مجـــلة الكاتب المصرى) بقوله : أما النزاع بيني وبين الاستاذ الرصافي فليس اليوم كما يكبره المرجفون فكثيرا ما نتلاقى كصديقين .

ومعنى هذا ان هناك خلافا كان قائما فى فترة ما . ولست أعرف وجهة نظر الرصافى فى هذا الخلاف كما لم يصل الى أن الرصافى رثى الزهاوى بعد موته والواقع أن هنـــاك فارق وخلافا شديدين بين منهج كل من الشــاعرين ومذهبهما فى الشعر والحياة . ولعل الزيات حين وصف الزهاوى بأنه كان قريب من المعرى وأن الرصافى كان قريبـــا من أبى نواس كان يحكى الحقيقة .. فقد عرف أن الرصافى عاش حياة عــارية جريئة كلها متع وخمر وجرأة على التقاليد .. بينما لم يعش ذلك الزهاوى الذى كان مريضا .. وكان حريصا على الاحتفاظ بمظهر الوقار والكبرياء ليترك فى نفوس الناس دائما صــورة الدعاة وأصحاب الرسالات .

ومما قاله الزيات أن الرصافى (١) تميز بالصراحة الجريئة والاستهتار البـــالغ . وانه هو نواس العــراق فى حين كان أستاذه الالوسى يريده أن يخلف معروفا الكرخى الصـــوفى المعروف . ولعل اضطراب حياة الرصافى يرجع الى انه لم يجد ما كان يطمع فيه من مكان فى عهد فيصل مما دعاه الى أن يعلن الخصومة على الملك ووزرائه

١و٢ ـ الرسالة ٢٦ مارس ١٩٤٥

ولكن هذا لا ينقص من قدره كشاعر . يضعه النقاد بين الاوتاد الخمسة للشعر العربي الزهاوي والرصافي وشوقي وحافظ ومطران (١) وكان الدكتور طه حسين قد مضى بأمارة الشعر التقليدي للعراق بعد وفاة شوقي (١٩٣٢) وقد علق الزيات على هذا بأن الزهاوي يفضل أن يكون في ساحة المجددين عن أن يكون في طليعة المجددين .

وقيل ان الفرق بين الزهاوي والرصافي أن الزهاوي أديب عالم والرصافي فنان أديب .

الزهاوى فى رأى مؤرخيه

يروى الاستاذ الزيات أن الزهاوى كان يحضر فى آخر ايامه ندوة السيد صبحى الدفترى محافظ بغداد فى داره ضحى الجمعة من كل أسبوع يحضرها الوزراء والزعماء والادباء والقادة .. فيكون لكل طائفة منهم حلقة وحديث .. ولكن الزهاوى كان اذا تكلم أصغت اليه الدار وتحلقت عليه الندوة لان جميلا كان آية الله فى فكاهة الطبع وظروف المحاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث . وكان له فى القاء النادرة لهجة واشارة وهيئة لايبرح سامعها مستطار اللب نشوان المشاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع .

ولعل أبلغ مظاهر حياته هو ذلك القلق والتشاؤم والتململ ولا يشعر بالطمأنينة ينطلق يشكو دائما كل من يلقاه عن جمود الامة واغفال الدولة وكيد الخصوم والحاح المرضى .. وكانت الحيوية تقبض من كلماته .. والعزيمة تصطرم فى نظراته . وهو كتلة من الاعصاب القوية المشدودة (١)

١ ـ وحى الرسالة ٢ الصادر عام ١٩٤٤

١ ـ الزيات ـ الرسالة ١٩٤٧

وهو بين الشكوى والزهو والطموح والقلق والتمرد يعيش حياته

يقول الزيات : كان الزهاوى يهزج باغـاريد الفجر على ضفاف دجله فتتردد أصداؤها الموقظة فى ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب • وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى أوصل القلوب العربية فى مجاهل القرون القديمة بخيوط الهية غير منظورة ولولاها لما تهيأ العراق هذه الزروة •

وانه ساعد على انهاض العرب بوثوب فكره •• وعلى احياء الادب بوميض روحه •

وقد قال بعض مؤرخيه انه : راوية لا يبارى •• فكان صدره يعى من الاخبار والنكات والحوادث ما تضيق دونه المجلدات وكان له فى الرواية أسلوب خاص يأخذ بمجامع سامعيه • وانه كان فى أخريات أيامه يتردد على قهوة معروفة فى بغداد فيلتف حوله تلاميذه ومريدوه ويستمعون الى رواياته الشائقة وأحاديثه الممتعة ونوادره المضحكة ولا يقاطعونه ولا يجرءون على معارضته •

وقد عنى بعض المستشرقين والكتاب الاجانب بآثاره وكتب أمين مكتبة الفاتيكان الكبرى : ان ما يحتـوى عليه ديوان الاوشال هو أروع ما قرأناه فى الشعر العربى العصرى •وكتب المستشرق الدكتور ودمر الالمانى ترجمة حياته • وترجم قصيدة ثورة فى الجحيم وخمسين قصيدة من اللباب و٥٣ رباعية الى الالمانية وكتبت عنه بعض صحف برلين مقالات وابحاث •

وجملة قول نقاده ومؤرخيه : أنه حصـــل لواء التجديد فى الشعر العربى ودعا الى الاخذ بكل جديد من الاراء والإفكار ٠ وتحمل في سبيل ذلك كل أذى فقد كانت بيئة العراق جمود وظلام وقد غمرتها الامية وطغى عليها الجهل ٠ (١) وقد ألف الناس الخضوع لجبروت الحكام والخضوع لبالى لعادات ٠ وما أضفاه المشعوذون عليها من أثواب التقديس والتعظيم ٠٠ وكان أى واحد يخرج على بعض التقاليد يتهم بالزندقة والكفر أو يتحدث عن شيء مما ابتـكره الغـرب حتى يرمى بالبـدعه والمروق فى الدين ٠

وقد نقد الاستاذ سليم طه رباعياته ٠٠ وقال انها ركيكة المعنى مهلهلة الاسلوب تعوزها الصناعة الفنية وتنقصها دقة التعبير الى جانب السبك فى النظم وحسن اختيار الكلمات ٠

ومن جماع ما يقال أن القلق كان أبرز معالم شخصيته ٠٠ وان ارتفاع السن والحياة الطويله أعطته شيئا من القداسه ٠ وان عواطفه وآرائه تبلورت بعد سن الاربعين ٠ وانه لم ينظم شعرا فى الثورة العراقية وان والدته هى التى أورثته الصلابة ولعناد ٠ ونه كان يحب المدح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا ٠ وانه تأثر بأحداث العراق والبلاد العربية وانه عاش حيـاته شاكيا ضجرا قلقا ٠ وكان التشاؤم والتقطيب والضـــيق والشكوى من أبرز مظاهر حياته ٠٠ وقيل ان علله وأمراضه التى لازمته طوال حياته لها أثرها فى اتجاهاته وكانت مصدر

١ ـ من مقال فى مجلة يونيه ١٩٤٩

ىقمه وجزعه واكتئابه وقالوا ان فيه تناقض واضطراب وعاطفته تغلب عقله أحيانا . ولا يستطيع أن يطوى صدره على الاوهام الخاصة .. وكان يحس بأنه دون قدره وان لم يعط ما كان خليقا به .

وقد سبق الزهاوى جيله وتأثر بالتيارات الفكرية وعاش في مرحلة انتقال واضطراب بين الدين والوطنية وبين العثمانية والحرية وبين الاستعمار والاستقلال وبين الترك والعرب .. وأبرز ما فيه ثباته على ما دعا اليه . وقد عرف « بليلى » فقد كانت (١) حلمه الذى صبا اليه وأمانيه التي حط عندها رحاله فهي في في الحقيقة وطنه العراق وهى فتاة أحبها أيام كان في الاستانة .

وقد أطلق روفائيل بطي على الزهاوى اسم «فيلسوف بغداد في القرن العشرين » وانه لم يحس في حياته بالتقدير من وطنه ولا من الادباء .

وقال نقاده : ان شدة حنقه على المجتمع يرجع الى علة لازمته طوال حياته . والمرء شديد الانفعال في مثل هذه الاحوال اذ يرى نفسه رازحا تحت ثقل الآلام حالة ان غيره ممن ليس أجدر منه ينعم الحياة يتمتع بما لذ وطاب ويسير في الارض مرحا وعليه نجد شعره ضربا من الفلسفة الاجتماعية وقد أدركته علته في النخاع الشوكى وهو في منتصف العقد الثالث من عمره

١ ــ ناصر الحاني في محاضراته .

فتبعتها علل أخرى لم يكن الشلل الا بعضها . لهذا كان يسير دائما راكبا وبرفقته خادمه الامين .. فاذا ترجل توكا عليه حتى يصل الى مجلسه .

وكان الزهاوى يميل الى البساطة في كل شيء ويتجنب كل كل ما يشف عن العظمة والغطرسة وكان بيته رمزا على بساطة عيشه . وكانت حديقة منزله على صغر مساحتها دليلا على حسن ذوقه وشدة ميله الى الطبيعة .

وكان الزهاوى يبسط آراءه بكل صراحة ولا يعبأ بانتقاد يوجه اليه وكان شديد الانفعال ينتقل من الغضب الى الفرح فى طرفة عين . ويقول ان الحياة أقصر من أن يضيعها المرء فيما يسوء .

وكان الزهاوى شديد الولع بمشاهدة السينما ويحب مصر وادبها وفنها وتمثيلها وغنائها .

ويقول اسماعيل ادهم فى دراسة قصيرة له عن الزهاوى انه تأثر بشبلى شميل فبعد أن كان يؤمن بالدين أثارت هذه الفصول فى نفسه روح الجرأة على المقدسات وانه تأثر بالوهابية تأثيرا عكسيا فرد على دعاتها فى كتاب بعنوان : الفجر الصادق فى الرد على منكرى الكرامات والخوارق .

وان رأيه فى المرأة هو رأى أفلاطون الذى يرى ان المرأة

وان كانت أقل في الاستعداد الطبيعى الا انهـا تقترب من استعداد الرجل ٠

وقال اسماعيل أدهم ان أبرز معالم شعر الزهاوي اتجاهه العقلي في الشعر بعيدا عن الخيال والتأمل الفلسفي وانه حمل الشعر رسالة العلم ٠ وقد جمع بين العقلية العلمية مع القدرة على النظم ٠ وكان في احساسه الشعور بسبق الزمن ٠

الادب العـــراقي في عصره

كان العراق في العصر السابق لاعلان الدستور العثماني .. يعيش في جو مظلم خانق من دسائس السلطان عبد الحميد. لم يكن هناك من يجرؤ على كلمات الحريه والاستقلال وفي خلال هذا العهد هاجر جميع أحرار الفكر الى مصر وتركوا البـــلاد التي تحكمها تركيا العثمانية .. واكتفى الزهـــاوى بأن ينظم نفثات قلبه ويرسل بها الى المؤيد والصحف المصريه مهاجما عهد عبدالحميد ومطالبا بالحرية والسفور . فلما أعلن الدســتور سنة ١٩٠٨ قوبل ذلك في العراق بالفرح الشديد والتهليـــل أملا في الفرص التي سيتيحها الدستور للناس في حرية القول والرأى والنشر . وكان الزهاوى في مقـــدمة الذين اهتزوا لهذا الحدث الكبير .

وبدأ الادب العراقي يدخل في دور جديد حيث انبعثت منه حركة أدبية ضخمة . كان قوامها مدرسة الالوسى في بغـداد وعميدها محمود شكرى الالوسى . ومفتدى الشيخ أمين غالى في البصرة ومكتبه دير الادباء الكرمليين ببغداد .

كما حافظت النجف على استقلالها الادبي وتراثها الروحي فما زالت دار علم ومدرسة للثقافة فيها أسر قديمــة توارثت

طلب العلم والادب خلفا عن سلف وأساتذة ممتازون في المنقول والمعقول ولها مكتبات غنية بما ينشده الباحث والاديب (١)

وقد أقامت الطبقات الادبية التي ظهرت في هـــذا العصر ادبها على أنقاض أدب النجف الطبطبائي والفحام والنحـــوي والاعيسم • ومن شعراء الحلة جمهور الحلي ومحسن الخضري وسعيد الحبوبي •

وقل في هذا العصر المدح في الشعر وكثر الوصف • واتجه الشعراء الى وحدة الموضوع في قصـــائدهم بدلا من تعـدد المواضيع • وشاع الشعر السياسي والاجتماعي •

ولم تنس العراق أدبها التقليدي الرائع : الادب العـــلوى الحسيني الذى يحمل دعوة الكفاح والجهاد •• ويرسم صورة البطولة والدفاع عن النفس والعقيدة وذكر امجاد الاســــلام والعراق ولعروبة وقد كان للنهضة الادبية الحديثة في العراق أثره الواضح في القصـائد والملامح الجديدة التي تحدثت عن التضحية والبطولة •

ولم يلبث العراق بعد قليل ان ثار ثورة عارمة مجيـــدة تحدث عنها القاصي والداني ســـنة ١٩٢٠ كانت بداية عصر التحرر والوطنية •• انتهت معها معالم الاســـتبداد العثماني وظهرت القومية العربية جهيرة حية واضحة • وبدأت مرحلة

١ محمد رضا الشبيبي : بحث في المجمع اللغوى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٨

جديدة من مراحل الكفاح لمقاومة الاحتلال البريطاني وارساء قواعد حياة وطنية جديدة قوامها الدستور والنيابة والعهد الجديد الذي كان على رأسه فيصل ومن بعده غازى وفى خلال هذا التاريخ الطويل كان الزهاوى والرصافي والجواهري والكاظمي أبرز شعراء الفترة ·

وقد كانت مظاهر الادب العراقى كما صوره الاستاذ الشبيبى جزالة عربية في الالفاظ ومحاكاة للقدماء وجمود على الفنون الشعرية المألوفة حتى جاء الزهاوى والرصافى فجددا الشعر ودفعاه دفعة قوية الى الامام حيث حرراه من بعض قيوده فأتجه الادب العراقى الى الواقعية وكان هـذا تطورا طبيعيا حيث زالت نظم مألوفه فى الحكم وحلت بدلا منها أخرى استتبع تغيرا فى أساليب الفكر والنظم والكتابة ·

وقد كان شعر الزهاوي والرصافي والكاظمي على الاختلاف البعيد فى اتجاهاتهم وأساليبهم ترجمانا لحياة العراق وما يجيش فى نفوس أهله وما وقع فيه من أفراح ومآسى ·

ومن ناحية اللفظ يتجلى فى الشعر العراقى رصانة فى مبناه وصفاء وديباجة وبيان مشرق ·· ولعل شعرا فى العالم العربي لم تقم فيه دعوة قوية الى التجديد والتطور والتحامل على القديم مثلما حدث للشعر العراقى ·

يقول الدكتور زكى مبارك أن الادب العراقي الحديث انتفع بثلاثة ينابيع : أولهما الادب الفارسى ·· والادب التركى والادب المصرى هذا بالاضافة الى الادب العربى القديم ·

وقد نظم الزهاوى الشعر بالفارسية يوم ذهب الى ايران للاشتراك في احياء ذكرى الفردوس .

وقد عرف الشعر العراقى الشاعر الفيلسوف فى الزهاوى والشاعر الاديب فى الرصافى وفى الشاعر العربى التقليدى فى الكاظمى وفى شعر الموشحات فى الحبوبى .

ويتميز الادب العربى بالحديث عن الامة العربية ويرسم صورا كثيرة من الشام ومصر .

فكثير من أدباء العراق عاشوا فى مصر . والاخوانيات من ابرز مظاهر الادب العراقى فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد

وقال زكى مبارك أن شعراء العصر فريقان .. فريق يترسم خطى شعراء الجيل فى الماضى القريب ويجرى على سننهم المعروف فى المذاهب والاساليب مع شيء من التجديد : أحمد الصافى والحبوبى واليعقوبى والجواهرى والمقلد والخطيب والجعفرى وشعراء الرابطة العلمية الادبية فى النجف والفريق الاخر من شعراء الشباب الذى يميل الى مجاراة الغربيين ويحاول ان يتعاطى النظم على طريقتهم المعروفة وعددهم قليل .

وللادب العراقى الحديث فى مراحله فترات من أظهرها جنوحه الى التشاؤم والشكوى . ووصف مظاهر البؤس والحرمان فى كثير من الاحيان ومن مميزاته نزوع ظاهر الى العنف فى مقاضاة الطبقة الحاكمة والدفاع عن حقوق الطبقة المحكومة .

وفى ميدان النثر طائفة من الباحثين والعلماء المنقطعين

للدراسات الفكرية يؤلفون ويدرسون وينشرون ولهم مؤلفات وتصانيف أبحاث منهم بهجت الاثرى ومصطفى جواد وعباس غزاوى وجواد على وأحمد سوسه وكوركيس عواد

وقامت الصحافة العراقية بدور ضخم فى سبيل الحركة الوطنية العراقية وكان لكتابها جهد ملحوظ ويقول زكى مبارك أن المقالة القاسية في جريدة عراقيـــة ·· فهى تزلزل احساس الجمهور أعنف الزلزال · وقد أغلقت جريدة عراقية لانها كتبت مقالا عنوانه الفرات الهائج لانها تناست الفرق بين الهياج والطغيان ·· فالهياج يضاف الى السكان أما الطغيان فيضاف الى الماء ·

وهكذا يبدو الزهاوي بعيد الاثر فى أدب العراق · اشترك فيه أكثر من خمسين عاما في ثلاث عهود ·· قبل الدستور وبعده وفى عهد الاستقلال والوطنية · ونافح عن العراق والعرب والحرية الفكرية وطالب بتحرر المرأة · وهز قوائم المجتمع العربى بدعوته الحرة وجرأته الخالصة واندفاعاته المتحررة فى تجديد نظم الشعر وتوجيهه من التقليد والعنـــاية باللفظ ·· وموضوعات الشعر القديمة الى الاقتحام فى ميدان السياسة والاجتماع والاختراعات الحديثة وحمل لواء التجديد ·

وقد واجه المحافظون الزهاوى بالنقد وقاوموا دعوته وأسلوبه ولكن الزمن تغير وأصبح الزهاوى مظهرا واضحا من مظاهر الادب العراقى وقمة من قممه ومفخرة من مفاخره · فقد كتب للادب العراقى صفحة مشرقة ومثل فى الادب العربى المعاصر

زاوية حية ·

وحق ما قال الزهاوي أنه سيأتي اليوم الذى يدرك فيه المؤرخون مدى عظمة الدور الذى قام به وفي العراق اليوم تلاميذ الزهاوي وشباب العراق الذين غنى لهم الزهاوي سنوات وسنوات يسيرون على نهجه ويؤمنون به ·

واليوم وقد مضى على موت الزهاوي بضعة وعشرين سنة فقد بطلت الخصومة وزال الخلاف وآمن العراق بأن الزهاوي كان علما من أعلام الحرية فى تاريخه وانه دفع العراق الى الامام بقوة ·· وأن هناته هي هنات البشر التى لا تتخلف مع الطبائع الانسانية لاسيما بالنسبة للزمن الذى عاش فيه وما كان فيه من ظلام واستبداد · وبالنسبة لحياته الطويلة المديدة ··

واليوم نرى الزهاوي وهو يمثل ركنا قويا من أركان الادب العربي المعاصر وجانبا هاما من جوانبه بالاضافة الى زملائه وأترابه شوقي وحافظ ومطران والرصافي والكاظمي

واليوم حين أتم هذا البحث أذكر انى أعددت بحثا عن الزهاوي سنة ١٩٣٩ وأنا فى مطلع الحياة الادبية وقد قلت فى مقدمة هذا البحث : ما عشقت فى حياتى قدر رغبتى فى الكتابة عن هذا الرجل الشاعر الذى يغلب سحر كلمة على روحى فيردنى عن الحياة الى أجواء تسمو وتسمو حتى تبلغ عنان السماء ·

وفي سنة ١٩٥٤ كتب عدد من الدراسات عن الأدباء

المعاصرين (١) من بينها دراسة عن الزهاوى أنقل منهـا ما قد يكون مكملا لهذه الدراسة من جوانب حياته

ظل الزهاوي سابقا لعصره متهما بين أهل جيـــله وبلده بالزندقة والجنون والالحاد · وقد منحه العمر الطويل وتقلب الزمن حيث عاش الى سن السبعين مسحة من القداسةالرائعة خاصة بعد أن تخطت العراق مرحلة الانتقال · وقد اضطر فى ابان محنته الى بيع معظم كتبه ولعل دفاعه عن حرية المـــرأة متصل الى حد كبير باثر المرأة فى حياته وفنه وقد أثرت عنه فى ابان اقامته فى استانبول مغامرات وضيئة حيث أطلق لهواه العنان بعد أن فارق بيئة العراق · ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يألف العشق الطـــويل المدى · ويبدو أن الزهاوى فى الحب أشبه بشـــوقى فهو على طبيعته المتكبرة لا يصل الى أعماق الحب ولا يسبر غوره وهو ليس من من الروحيين الغزليين وأقرب الى الواقعية الادمية ولا تجد عنده تلك الحرارة الدافقة فى العاطفة

ولعله وجد فى مصر أيضا سبيلا الى عاطفة او حب · وهو فى كل أحواله عن المرأة والدعوة الى تحريرها ليس الا داعية بالتعلم ·· اذ انه لم يستجب لذلك فى حياته الخاصة · فقد كان الزهاوى زوجا وكان زوجته متحجبة · وقد وصفت هذه الحياة بانها كانت هادئة مرضية لنفسه · وقد تزوج الزهاوى

---

١ ــ كتاب أضواء على حياة الادباء المعاصرين ·

في سن مبكرة . وأمكن أن تهييء له زوجه اسباب الراحة النفسية على ما به من شذوذ .. اذ كانت خير معز لي في المحن الفكرية والسياسية التي تعرضت لها .. وفي خلال سنوات مرضه باعصابه فقد كانت تعنى به عناية الأم بطفلها وتهتم بهندامه وتنظيم مكتبته وقد سافرت معه ابان سفره الى مصر وسوريا . ومن أبرز معالم حياة الزهاوي الخاصة انه لم يرزق أولادا ولعل ذلك كان مصدرا من مصادر اضطرابه النفسي .

وقد وصفه بعض النقاد بانه ناظم وليس بشاعر وقال عنه الناقد يوسف جورج : انه ليس شاعرا . اذ أن الشاعر يعتمد على العاطفة والخيال قبل العقل . والزهاوي كان لا يبالي العواطف والخيال أبدا .

وبعد فالزهاوي قوة أدبية كبيرة في تاريخ العراق الذي أحبه وفي تاريخ الادب العربي المعاصر .. وهو علم من أعلام الفكر والشعر والفلسفة العربية الحديثة يمثل جانبا واضحا هو الحرية الفكرية والتجديد والدعوة الى الاصلاح الاجتماعي .. رحمه الله .

أنور الجندي

الشركة العامه للبترول

١٤ شارع سليمان باشا القاهرة

تعلن الشركة عن مناقصة عامة لعمليات نقل مهمات ومعدات – لمدة عام – ويمكن الحصول على دفتر الاشتراطات من إدارة العمليات بالشركة نظير دفع رسم قدره ٢ جنيه – أثنين جنيه تقبل العطاءات حتى ظهر يوم الاثنين ٢٩ فبراير سنة ١٩٦٠ م

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٣٠ شارع منصور ـ القاهرة
ص٠ب ٢٣٩٨